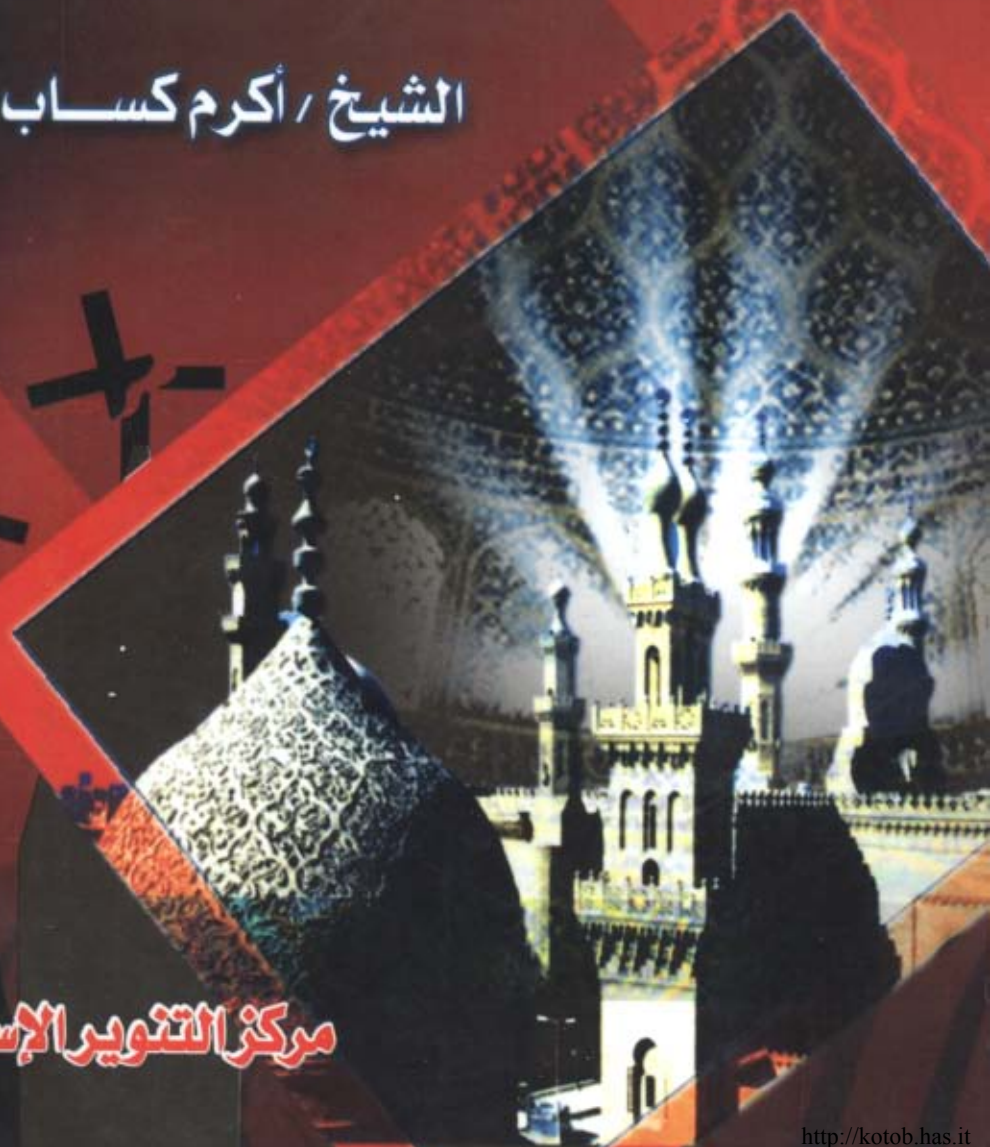


علاقة الإسلام بالنصرانية

في القرآن والسنة وعبر التاريخ

الشيخ / أكرم كساب



مركز التنوير الإسلامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رقم الإيداع
٢٠٠٧ / ٣٠٦٩

مركز التنوير الإسلامي
للخدمات المعرفية والنشر
١٤٥ ش مصر والسودان - حدائق القبة

الشيخ أكرم كساب

علاقة الإسلام بالنصانية
في
القرآن والسنة وعبر التاريخ

مركز التنوير الإسلامي

للخدمات المعرفية والنشر



الإهداء

إلى العلماء العاملين .
إلى الدعاة المخلصين .
إلى من يهمه أمر المسلمين .
إلى كل منشغل بسفاسف الأمور .
إلى كل مسلم حيّ القلب ، نقيّ الفؤاد .
إلى كل مثير للجدل، ومحب للخلاف .
إلى كل من زعم حب المسيح ﷺ وتناول على محمد ﷺ .
إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذه الكلمات ؛ سائلاً الله أن يجعل هذا
العمل خالصاً لوجهه الكريم ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ
عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ الكهف 110 .

مقدمة

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، واحد لا شريك له، لا شيء مثله، ولا شيء يعجزه، ولا إله غيره، أول بلا ابتداء، وآخر بلا انتهاء، لا يفنى ولا يبيد، ولا يكون إلا ما يريد، لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام، ولا يشبه الأنعام، حي لا يموت، قیوم لا ینام، خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة، ممیت بلا مخافة، باعث بلا مشقة¹، القائل سبحانه: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ طه: 14 .

والقائل جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ المائدة: 17. والقائل تقدست أسماؤه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ المائدة: 73 . والقائل في الحديث القدسي: " كذّبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقلوه : لن يُعِينَنِي كما بدّأني ، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته ، وأما شتمه إياي فقلوه : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد " ².

والصلاة والسلام على سيدنا وإمامنا وهاديّنا ومعلمنا ومخرجنا من الظلمات إلى النور، محمد ﷺ القائل : " خير ما قلت أنا والنبیون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له " ³.

¹ - من كلام الإمام الطحاوي في عقيدته الطحاوية .

² - رواه البخاري في بدء الخلق رقم (3193) عن أبي هريرة .

³ - رواه مالك في الموطأ في كتاب القرآن (608) والترمذي في الدعوات (3579) وقال حديث حسن غريب، وذكره الألباني في صحيح الترمذي رقم (2837) .

أما بعد

فيُخطئ من يتصور : أن العلاقة بين الإسلام والنصرانية كانت دائماً علاقة عداة، ويزداد خطؤه إن اعتقد تضاداً بين ما جاء به محمد ﷺ وما جاء به عيسى بن مريم عليه السلام ، وسنحاول إن شاء الله تعالى توضيح مدى العلاقة بين الإسلام والنصرانية ، ومدى ارتباط عيسى عليه السلام بالمسلمين وعقيدتهم ، كما سنذكر ما أمر الإسلام به في التعامل مع أتباع هذه الديانة ، وسنذكر من التاريخ ما يؤكد صدق ما جاءت به تعاليم الإسلام .

هذا وكنت قد كتبت بحثاً مطولاً بعنوان "التصير: مفهومه - جذوره - أهدافه - أنواعه - وسائله - صولاته" ورأيت بعد أن أشار عليّ بعد الإخوة أن أنشر هذا المبحث مستقلاً، فاستخرت الله تعالى، وتوكلت عليه، راجيه سبحانه أن يكتب له القبول، وأن يجعله خالصاً لوجهه، وأن يرزقني سبحانه الإخلاص والتوفيق، والسداد والرشاد.

هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده، وهو حسبي ونعم الوكيل، وما كان من تقصير فمن نفسي والشيطان، وأسأل الله المغفرة من كل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

﴿ربنا لا تزعج قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ آل عمران: 8.

أكرم عبد الستار كساب

Akram_kassab@hotmail.com

1 شعبان 1425 هـ . 15 سبتمبر 2004م

¹ - والكتاب الآن تحت الطبع إن شاء الله.

أولاً: عيسى عليه السلام في القرآن والسنة

القارئ للقرآن يرى أنه كتاب منصف لكل الأنبياء عليهم السلام ؛ وكيف لا وهو كتاب الله كما أنهم رسل الله ؟ كما أن المتابع لآيات القرآن وسوره يجد الحديث بكثرة عن عيسى عليه السلام في مئات الآيات وعشرات السور .

إن عيسى في القرآن والسنة هو : الرسول ، النبي ، الوجيه ، المبارك ، المؤيد من قبل الله بالكتاب والحكمة والمعجزات والبينات الواضحات ، وروح القدس ، الذي عليه من الله السلام يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً .

وقد كان الحديث عن عيسى في القرآن على هذا النحو :

1- ورد اسمه (عيسى) 25 مرة .

2- ورد وصفه (المسيح) 11 مرة .

3- خلق عيسى عليه السلام معجزة ربانية . قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ آل عمران : 95 .

4- عيسى عليه السلام آية من آيات الله . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ المؤمنون : 50 .

5- عيسى عليه السلام نفخة من روح الله . كما قال تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا

وَكُتِبَهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿التَّحْرِيم: 12﴾ ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿وَالَّتِي
أَخْصَنْتَ فَرْجَهَا فَفَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾
الأنبياء : 91 .

6- عيسى عليه السلام كلمة الله . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ
وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ
وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ النساء :
171 .

7- عيسى عليه السلام روح الله . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ
وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ
وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ النساء :
171 .

8- عيسى عليه السلام ليس له أب . قال تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي
وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ آل عمران : 47 .

9- عيسى عليه السلام رسول من رسل الله . قال تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى
وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الأنعام : 85 و قال تعالى : ﴿
وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ
وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا

اتَّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿ النساء : 157 . وقال تعالى: ﴿ مَا
الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ المائدة 75 .

10- عيسى عليه السلام وجيه في الدنيا والآخرة . قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ
الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
وَجِبْهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ آل عمران : 45 .

11- عيسى عليه السلام رسول من أولي العزم . قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا
مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾
الأحزاب: 7، وقال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا
وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾ الشورى :
13 .

12- عيسى عليه السلام عبد لله . قال تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ
نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ
وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ مريم 29، 30 . وقال سبحانه: ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ
يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ
فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ النساء: 172. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ
عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (72) ﴾ المائدة : 72 .

13- عيسى عليه السلام عبد مبارك . قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ
آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ مريم:
30 - 31 .

14- عيسى عليه السلام ليس إلهاً . قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ المائدة : 17 ، 72 . و قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ التوبة : 30 .

15- عيسى عليه السلام ليس جزءاً من الله . قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ المائدة 73 .

16- عيسى عليه السلام مؤيد من قبل الله . قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ المائدة : 110.

17- عيسى عليه السلام يكلم الناس في المهد. قال تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ مريم 29 - 31.

18- ولعيسى عليه السلام معجزات أخرى . قال تعالى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران 49.

19- المائدة من أكبر معجزات عيسى عليه السلام . قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ

السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قَالَ اللَّهُ إِنَّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (115) ﴿ المائدة 112 — 115 .

ويمكن إجمال معجزات عيسى عليه السلام التي جاءت في القرآن في الآتي:

• الكلام في المهد .

• إبراء الأكمه .

• إبراء الأبرص .

• إحياء الموتى .

• تصوير الطين ، والنفخ فيه ، فيصبح حياً بإذن الله تعالى .

• الإخبار ببعض المغيبات . بحسب ما أطلعه الله عليه .

• نزول المائدة على قومه من السماء .

20— عيسى عليه السلام لم يُقتل ولم يُصلب . قال تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ

عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ النساء : 157 .

21— عيسى عليه السلام رُفِعَ إلى السماء . قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا

عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ارْأَيْكَ وَرَأْفَعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ آل عمران: 55 .

22- عيسى عليه السلام سينزل قبل الساعة . قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمِ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ الزخرف : 61 .

وينزل عليه السلام فيحكم بالقرآن ويؤمن بالإسلام ويؤمن به النصارى تابعا لمحمد ﷺ قال تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ النساء 159 .

وقد أخبر النبي ﷺ عن نزوله كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ : " والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها " . ثم يقول أبو هريرة: واقروا إن شئتم: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ النساء 159.¹

وفي رواية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : " ليهبطن عيسى بن مريم حكما عدلا، وإماما مقسطا، وليسلكن فجاء، حاجا أو معتمرا ، وليأتين قبري حتى يسلم، ولأردن عليه " . يقول أبو هريرة: أي بني أخي، إن رأيتموه فقولوا: أبو هريرة يقرئك السلام .²

23 - ابن مريم عليه السلام يقتل الدجال : وأخبر رسول الله ﷺ عن أعظم أعماله وهو قتل المسيح الدجال : فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق، أم بدابق. فيخرج إليهم جيش من المدينة. من خيار أهل الأرض يومئذ. فإذا تصادفوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا. والله!

¹ - رواه البخاري في أحاديث الأنبياء رقم (3448) عن أبي هريرة.

² - رواه الحاكم في مستدركه وقال : هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه بهذه السياقة، ووافقه الذهبي (595/2) .

لا نخلي بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم. فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً. ويقتل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله. ويفتح الثلث. لا يفتنون أبداً. فيفتنون قسطنطينية. فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم. فيخرجون. وذلك باطل. فإذا جاءوا الشام خرج. فبينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة. فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام. فأمهم. فإذا رآه عدو الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء. فلو تركه لانداب حتى يهلك. ولكن يقتله الله بيده. فيريهم دمه في حربته".¹

24- محمد عليه السلام أولى الناس بعيسى عليه السلام قال عليه السلام: "أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة" قالوا: كيف يا رسول الله قال: "الأنبياء إخوة من علات. وأمهاتهم شتى. ودينهم واحد. فليس بيننا نبي".²

25 - محمد عليه السلام يتمنى لقاء عيسى عليه السلام ويوصي أتباعه بالسلام عليه ، وفي الحديث عن أبي هريرة عن النبي عليه السلام قال: "إني لأرجو إن طال بي عمر أن ألقى عيسى بن مريم عليه السلام ، فإن عجل بي موت فمن لقيه منكم فليقرئه مني السلام".³

وفي رواية قال عليه السلام: " من أدرك منكم عيسى ابن مريم فليقرئه مني السلام".⁴

¹ - رواه مسلم في الفتن رقم (2897) عن أبي هريرة.

² - رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (3443) مسلم في الفضائل رقم (2365) عن أبي هريرة.

³ - رواه أحمد (7970 ، 7971) عن أبي هريرة وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرطهما، واختلف في وقفه ورفع. وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد مرفوعاً وموقوفاً ورجالهما رجال الصحيح (205/8).

⁴ - رواه الحاكم (4 / 545) وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (2308) .

ثانياً : مريم في القرآن والسنة

- وكما أعلى الإسلام من منزلة عيسى عليه السلام، فقد أعلى كذلك من منزلة أمه مريم عليها السلام ، والمتأمل للقرآن الكريم يلحظ الآتي :
- 1- ليس في القرآن سورة باسم امرأة سوى سورة مريم .
 - 2- لم يذكر في القرآن اسم امرأة صراحة سوى مريم عليها السلام، لا أمنة أمه، ولا خديجة زوجه ، ولا عائشة حبه ، ولا فاطمة ابنته.
 - 3 - ذكرت مريم في القرآن 34 مرة ¹.
 - 4 - مريم مكفولة من قبل الله . قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ آل عمران 44 .
 - 5 - مريم مصطفاة : مرة لإنجاب عيسى ومرة على نساء العالمين . قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ آل عمران 42 .
 - 6 - مريم عفيفة حصان . قال تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الْإِيمَانُ ﴾ آل عمران 37 .

¹ - انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن / ص 664 / ط دار إحياء التراث العربي .

7 — مريم مطهرة من كل عيب . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ آل عمران 42 .

8 — مريم آية من آيات الله . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ المؤمنون 50 .

9 — مريم من أفضل نساء العالمين . قال ﷺ : " حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية امرأة فرعون " .¹

وفي رواية أخرى قال ﷺ : " خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية امرأة فرعون " .²

10 — مريم من أفضل نساء أهل الجنة : قال ﷺ : " أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون " .³

وفي رواية عن ابن عباس: قال ﷺ : " سيدات نساء أهل الجنة : مريم بنت عمران ، ثم فاطمة بنت محمد ، ثم خديجة ، ثم آسية امرأة فرعون " .⁴

¹ - رواه الترمذي في المناقب (3888) . وذكره الألباني في صحيح الترمذي (3053) .

² - رواه مسلم في فضائل الصحابة (2430) عن علي .

³ - رواه احمد عن أبي هريرة (2668) وقال محققو المسند: إسناده صحيح ، رجاله ثقات رجال الصحيح ، ورواه أبو يعلى (2722) والحاكم (3 / 185) ، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (1508) .

⁴ - رواه الطبراني في الكبير . والحاكم في المستدرک (3 / 205) ، وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني وفيه محمد بن الحسن بن زباله وهو متروك (9 / 223) .

وفي رواية عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "بحسبك من نساء العالمين أربع: فاطمة بنت محمد ، وخديجة بنت خويلد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم".¹

11 — مريم سيدة كاملة : قال ﷺ : " كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا : مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام " .²

12 — مريم لم يمسه الشيطان: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال ﷺ : " كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه بإصبعه حين يولد، غير عيسى ابن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب " .³

وفي رواية : " ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخا من مس الشيطان، غير مريم وابنها " .⁴
وفي رواية : " كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه. إلا مريم وابنها".⁵

13 — مريم نذر مقبول . قال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ آل عمران 37 .

¹ - رواه الطبراني في الأوسط . وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الأوسط، وفيه سليمان الشاذكوني وهو ضعيف (218 / 9) .

² - متفق عليه . رواه البخاري في الأطعمة (5418) ومسلم في فضائل الصحابة رقم (2431) عن أبي موسى .

³ - رواه البخاري في بدء الخلق رقم (3286) عن أبي هريرة .

⁴ - رواه البخاري في أحاديث الأنبياء رقم (3431) عن أبي هريرة .

⁵ - رواه مسلم في الفضائل رقم (2366) عن أبي هريرة .

14 — مريم يأتيها رزقها رغداً في كل وقت وآن . قال تعالى :
﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ
هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ آل
عمران 37 .

15 — مريم مؤيدة بالمعجزات . قال تعالى : ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا
تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهَرَيِّ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ
عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ مريم 24 25.

16 — مريم منعم عليها من قبل الله . قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا
عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ
تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي
وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي
إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُبِينٌ﴾ المائدة 110 .

17 — مريم مصدقة بكلمات ربها وكتبه ، قال تعالى : ﴿وَمَرْيَمَ
ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتُ بِكَلِمَاتِ
رَبِّهَا وَكُتِبَ﴾ التحريم 12.

18 — مريم من القانتين ، قال تعالى : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي
أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتُ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ وَكَانَتْ
مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ التحريم 12 .

19 — ويكفي أن تقرأ هذا المقطع من سورة مريم لتدرك قيمة مريم عندنا — نحن المسلمين — قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (21) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (23) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهَزَيَّ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (28) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) ﴾ مريم 34 — 16

ثالثاً: حديث القرآن والسنة عن النصارى

(إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة) كلمة صادقة قالها النجاشي يوم أن تليت عليه آيات من كتاب الله، وهذه هي العلاقة بين الإسلام والنصرانية، وأعني بالنصرانية تلك التي جاءت من عند الله لا التي كتبها القساوسة والرهبان أو تلك التي زيفها الأباطرة وذوي السلطان، وقد جاءت لفظة النصارى (14) مرة ونادى القرآن النصارى مع إخوانهم من اليهود بلفظة جامعة بينهم، وهي أهل الكتاب وقد وردت في القرآن الكريم 31 مرة وخصّهم في الوصف بكتاب عيسى عليه السلام مرة واحدة حين قال : ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ المائدة: 47 .¹

وكان للنصارى وإخوانهم من اليهود أسلوب خاص تميز به القرآن الكريم في معاملتهم ؛ ويرجع السبب في ذلك كونهم أهل كتاب ، ولهذا أمر القرآن بالحسنى عند مجادلهم قال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ العنكبوت : 46 .

وقد اعترف القرآن برسالتهم ، وذكرهم بنعم الله عليهم قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ (40) وَأَمِنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا

¹ - انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ مرجع سابق.

تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَانْقُورِ ﴿ البقرة : 40 ، 41 .

كما أن القرآن عند حديثه عن أهل الكتاب وفسادهم لم يعمم وإنما أنصف المعتدلين منهم قال تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ آل عمران : 113 ، 114 .

ولقد حفلت السنة المباركة بالحديث عن النصارى ضمن حديثها عن أهل الكتاب جملة، والقارئ لحديث رسول الله ﷺ يجد جملة رائعة من الأحاديث التي توصي بهم ومن ذلك :

1. قوله ﷺ : " ألا من ظلم معاهداً ، أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة"¹ .
2. وقال ﷺ : " من آذى ذمياً فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة "² .
3. وقال ﷺ : " من قتل معاهداً لم يَرَحْ ريح الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً "³ .

¹ - رواه أبو داود في الخراج والإمارة (3052) وذكره الألباني في صحيح الجامع (2655) .

² - ذكره الخطيب البغدادي . وذكره الألباني في ضعيف الجامع رقم (5314) .

³ - رواه البخاري في الجزية والموادعة رقم (3166) عن عبد الله بن عمرو .

ولقد حفظ القرآن الكريم والسنة المطهرة للنصارى من الحقوق ما لم تتوفر لهم عند اختلاف طوائفهم أو تعدد مذاهبهم ؛ ومن هذه الحقوق :

1. الحماية من الاعتداء الخارجي : ولعله لا أروع مما فعله

شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - حين كلم " قطلوشاه " التتري في إطلاق الأسرى فسمح له القائد التتري بإطلاق أسرى المسلمين، وأبى أن يسمح له بإطلاق أهل الذمة، فما كان من شيخ الإسلام إلا أن قال : لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسرى من اليهود والنصارى فهم أهل ذمتنا، ولا ندع أسيراً لا من أهل الذمة ولا من أهل الملة ، فلما رأى إصراره وتشدده أطلقهم له .¹

2. الحماية من الظلم الداخلي وهذه الحماية الداخلية تشمل لهم

ما يلي :

- حماية الدماء والأبدان .
- حماية الأعراض .
- حماية الأموال .
- حرية الدين .
- حرية العمل والكسب .
- تولي الوظائف .²

¹ - انظر: شرح السير الكبير/ طبعة الجامعة/ ج1 ص 108.

² - انظر : غير المسلمين في المجتمع الإسلامي / د : يوسف القرضاوي / ط مؤسسة الرسالة / ط الرابعة 1985 / ص 9 - 20 باختصار شديد .

رابعاً: من الأحكام المتعلقة بالنصارى في شريعة الإسلام

وقد كان من سماحة الإسلام مع النصارى — وكذلك اليهود — أن جعل لهم أحكاماً خاصة، حتى وإن اختلفوا معنا في الدين، ومن أهم هذه الأحكام أذكر الآتي:

1- الزواج بالنصرانية — وكذلك باليهودية — :

لقد شرع الإسلام للمسلم أن ينكح نساء أهل الكتاب ودخل ذلك في دائرة المباح قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المائدة 5.

قال القرطبي في هذه الآية : واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ، فقالت طائفة حرم الله نكاح المشركات في سورة البقرة ، ثم نسخ في هذه الجملة نساء أهل الكتاب فأحلهن في سورة المائدة ، وروي هذا القول عن ابن عباس ، وبه قال مالك بن أنس وسفيان بن سعيد الثوري وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي .

وقال قتادة وسعيد بن جبير : لفظ الآية العموم في كل كافرة ، والمراد بها الخصوص في الكتابيات ، وبينت الخصوص آية المائدة ولم يتناول العموم قط الكتابيات، وهذا أحد قولي الشافعي .¹

¹ - انظر : الجامع لأحكام القرآن / القرطبي / ط دار الشعب / الطبعة الثانية 1372 هـ / ج 3

وقال ابن كثير : هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان ، ثم إن كان عمومها مراداً وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية ، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ولا تتكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ البقرة: 221، استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب ، وهكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومكحول والحسن والضحاك وزيد بن أسلم والربيع بن أنس وغيرهم .

ثم قال رحمه الله : وقد نكح طلحة بن عبد الله يهودية ، ونكح حذيفة بن اليمان نصرانية ، فغضب عمر بن الخطاب غضباً شديداً، حتى هم أن يسطو عليهما ، فقالا : نحن نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب ، فقال : لئن حل طلاقهن لقد حل نكاحهن ولكني أنتزعهن منكم صغرة قماءة. قال ابن كثير: قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات: وإنما كره عمر ذلك — أي نكاح الكتابية — لئلا يزهد الناس في المسلمات ، أو لغير ذلك من المعاني.

وروى ابن كثير قال : تزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر خل سبيلها . فكتب إليه : أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها ؟ فقال : لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن .¹

¹ - انظر : تفسير القرآن العظيم / ابن كثير / ط دار الفكر 1401 هـ / ج 1 / ص 258 .

وجمهور العلماء على جواز¹ الزواج من النصرانية - وكذلك اليهودية - وإن كان ابن عمر كان يرى بکراهة ذلك، وقد روي هذا أيضاً - أي الکراهة - عن الإمام مالك²، ورأي الجمهور أقوى حجة، وأظهر دليلاً. قال السرخسي رحمه الله: ولا بأس أن يتزوج المسلم الحرة، من أهل الکتاب لقوله تعالى: ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الکتاب﴾ المائدة: 5. 3

¹ - هذا الحكم ليس مطلقاً، وليس معنى ذلك أنه يحق زواج أي كتابية (يهودية أو نصرانية) وإنما يشترط فيها أمران: 1 - أن يدفع لها مهرها.

2 - أن تكون محصنة أي عفيفة. قال صاحب الظلال: وشروط حل المحصنات الكتابيات، هو شرط حل المحصنات المؤمنات: (إذا أتيتموهن أجورهن محصنين، غير مسافحين، ولا متخذي أخدان). ذلك أن تؤدي المهور، بقصد النكاح الشرعي، الذي يحسن به الرجل امرأته ويصونها، لا أن يكون هذا المال طريقاً إلى السفاح أو المخادعة... والسفاح هو أن تكون المرأة لأي رجل؛ والمخادعة أن تكون المرأة لخدین خاص بغير زواج... وهذا وذلك كانا معروفين في الجاهلية العربية، ومعترفا بهما من المجتمع الجاهلي. قبل أن يطهره الإسلام، ويزكيه، ويرفعه من السفح الهابط إلى القمة السامقة. انظر: في ظلال القرآن / سيد قطب / ط دار الشروق / الطبعة التاسعة 1980 م / ج 2 / ص 848. وقال الشيخ الغزالي: الحق أننا يجب أن نراجع قضية الزواج بالكتابيات، هل هن كتابيات حقاً؟ وإذا كن كما يزعمن فهل هن محصنات حقاً؟ هل البيئة التي تجعل الاتصال الجنسي حقاً مقررراً للجسد لا دخل للدين ولا للخلق فيه يمكن أن يوثق بها، وتختار الزوجة من فتياتها؟ انظر: الحق المر / محمد الغزالي / طبعة دار الشروق / الطبعة الأولى 1989 م / ص 36.

² - انظر: أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام / د: عبد الكريم زيدان / ص 341 / ط الثانية 1976 م.

³ - انظر: المبسوط / السرخسي / ط دار إحياء التراث العربي ببيروت / ط الأولى 2002 م / ج 5 / 205.

وقال علاء الدين الكاساني رحمه الله: "ويجوز أن ينكح الكتابية لقوله عز وجل: ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾" ¹.

وقال في تنوير الأبصار: "وصح نكاح كتابية"، وقال شارحه في الدر المختار: "وإن كره تنزيها" ².

واستدل الجمهور لما ذهبوا إليه من الجواز بالكتاب والأثر والمعقول:

أما الكتاب، فقوله تعالى: ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ كما مضى، ورأوا أن هذه الآية - وهي المائدة - إما مخصصة لعموم قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ولا تتكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ البقرة: 221، وإما ناسخة لها، لأن نزول سورة المائدة متأخر عن نزول سورة البقرة، وإما أن لفظ المشركين لا يتناول أهل الكتاب. ³

وأما الأثر فما ورد في نكاح الصحابة الكتابيات من اليهوديات والنصرانيات، منهم طلحة بن عبيد الله، وحذيفة بن اليمان، وعثمان بن عفان، رضي الله عنهم. ⁴

¹ - انظر: بدائع الصنائع/ الكاساني/ ط دار الكتاب العربي لبنان/ الطبعة الثانية / ط 1974 م .

² - انظر : حاشية رد المحتار/ ط دار إحياء التراث العربي بيروت/ بدون / ج2/ ص289 .

³ - انظر : جامع البيان عن تأويل القرآن / ابن جرير/ ط دار الفكر بيروت / ط 1405 هـ — / ج 2 / ص 376 ، وانظر: الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي / مرجع سابق/ ج 3/ ص 66 ، وانظر: المغني / ابن قدامة/ طبعة هجر/ الطبعة الأولى 1979م / ج 7/ص547 ، ومجموع الفتاوى / ابن تيمية / ج14/ ص 91. انظر : أحكام أهل الذمة / ابن القيم / مرجع سابق / ج2 / ص 421 / ط دار العلم للملايين / ط الأولى 1961 م .

⁴ - انظر : جامع البيان عن تأويل القرآن / ج2/ 376، وانظر : أحكام القرآن / الجصاص / ج 2/ ص 327/ ط دار الكتاب العربي بيروت/ بدون .

الحكمة من إباحة الزواج من الكتابية :

والحكمة من إباحة الزواج من الكتابية بيّنها الكاساني رحمه الله في " بدائع الصنائع " فقال : يجوز نكاح الكتابية لرجاء إسلامها، لأنها آمنت بكتب الأنبياء والرسول في الجملة، وإنما نقضت الجملة بالتفصيل، بناء على أنها أخبرت عن الأمر على خلاف حقيقته. فالظاهر أنها متى نبهت على حقيقة الأمر تنبهت، وتأتي بالإيمان على التفصيل، على حسب ما كانت أتت به في الجملة، وهذا هو الظاهر من حال التي بُني أمرها على الدليل دون الهوى والطبع، والزوج يدعوها إلى الإسلام وينبهاها على حقيقة الأمر، فكان في نكاح المسلم إياها رجاء إسلامها، فيجوز نكاحها لهذه العاقبة الحميدة، بخلاف المشركة، فإنها في اختيارها الشرك ما ثبت أمرها على الحجة، بل على التقليد بوجود الآباء على ذلك...¹

وقال في حاشية المنهاج للنووي: "وقد يقال باستحباب نكاحها، إذا رجي إسلامها، وقد روي أن عثمان رضي الله عنه، تزوج نصرانية فأسلمت وحسن إسلامها، وقد ذكر القفال أن الحكمة في إباحة الكتابية ما يرجى من ميلها إلى دين زوجها، إذ الغالب على النساء الميل إلى أزواجهن وإيثارهم على الآباء والأمهات، ولهذا حرمت المسلمة على المشرك"².

¹ - انظر : بدائع الصنائع / مرجع سابق / ج2/ ص 270 .

² - انظر : المنهاج مع الحاشية / محمد بن أحمد الشريبي الخطيب / طبعة دار الكتب العلمية / ج 3/ ص 187 .

وللشيخ محمد عبده كلام رائع في هذا حيث يقول رحمه الله : لقد أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية - نصرانية كانت أو يهودية - وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها، والقيام بفروض عبادتها، والذهاب إلى كنيستها أو بيعتها، وهي منه بمنزلة البعض من الكل، وألزم له من الظل ، وصاحبته في العز والذل ، والترحال والحل بهجة قلبه، وريحانة نفسه، وأميرة بيته، وأم بناته وبنيه ، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه .

ولم يفرق الدين في حقوق الزوجية، بين الزوجة المسلمة، والزوجة الكتابية. ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها في العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الروم: 21 . فلها حظها من المودة، ونصيبها من الرحمة، وهي كما هي . وهو يسكن إليها كما تسكن إليه وهو لباس لها كما أنها لباس له .

أين أنت من صلة المصاهرة التي تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة؟ وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهد في طبيعة البشر ؟ وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوانهم وذوي القربى لوادتهم .

أغيب عنك ما يستحكم من ربط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذي لم يعهد عند من سبق، ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه؟ ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه في نشأة الدين مما يُعوّد القلوب الشعور بأن الدين معاملة

بين العبد وربّه، والعقيدة طور من أطوار القلوب يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب، فهو الذي يحاسب عليها، وأما المخلوق فلا تطول يده إليها، وغاية ما يكون من العارف بالحق: أن ينبه الجاهل، وينصح الغاوي، ويرشد الضال . لا يكفر بذلك نعمة العشير، ولا يسلك به سالك التعسير، ولا يقطع أمل النصير، ولا يخالف سنة الوفاء، ولا يحيد عن شرائع الصدق في الوفاء .¹

ويقول الشيخ سيد سابق: وإنما أباح الإسلام الزواج منهن ليزيل الحواجز بين أهل الكتاب وبين الإسلام، وهو أسلوب من أساليب التقريب العملي بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب، ودعاية للهدى ودين الحق.²

وأختم بكلام رائع للأستاذ سيد قطب حيث يقول: إن الإسلام لا يكتفي بأن يترك لهم - أهل الكتاب - حريتهم الدينية؛ ثم يعتزلهم، فيصبحوا في المجتمع الإسلامي مجفوين معزولين - أو منبوذين - إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية، والمودة، والمجاملة والخطاة . فيجعل طعامهم حلاً للمسلمين وطعام المسلمين حلاً لهم كذلك . ليتم التزاور والتضاييف والمؤاكلة والمشاركة، وليظل المجتمع كله في ظل المودة والسماحة . . وكذلك يجعل العفيفات من نسائهم - وهن المحصنات بمعنى العفيفات الحرائر - طبيبات للمسلمين، ويقرن ذكرهن بذكر

¹ - انظر: الإسلام والنصرانية مع المدنية والعلم / الشيخ: محمد عبده/ طبعة دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع / الطبعة الثالثة 1988 م / ص 88، 90 .

² - انظر: فقه السنة / سيد سابق/ ط دار الفكر/ ط 1992م/ ج2 / ص 90.

الحرائر العفيفات من المسلمات . وهي سماحة لم يشعر بها إلا أتباع الإسلام من بين سائر أتباع الديانات والنحل . فإن الكاثوليكي المسيحي ليتخرج من نكاح الأرثوذكسية ، أو البروتستانتية ، أو المارونية المسيحية . ولا يقدم على ذلك إلا المتحللون عندهم من العقيدة !

وهكذا يبدو أن الإسلام هو المنهج الوحيد الذي يسمح بقيام مجتمع عالمي ، لا عزلة فيه بين المسلمين وأصحاب الديانات الكتابية ؛ ولا حواجز بين أصحاب العقائد المختلفة ، التي تظلمها راية المجتمع الإسلامي . فيما يختص بالعشرة والسلوك (أما الولاء والنصرة فلها حكم آخر)¹ .

من تزوج من الصحابة بالنصرانيات :

ومن الصحابة من أخذ بهذا الحكم وتزوج من النصارى ومنهم: الخليفة الثالث الحبي الكريم ذو النورين عثمان بن عفان، فقد تزوج رضي الله عنه بعد وفاة بنتي رسول الله من نائلة بنت الفرافصة الكلبيّة. قال ابن كثير : وقد كانت نصرانية وأسلمت بعد زواجها، وكانت نائلة نعم المرأة لزوجها².

كما تزوج طلحة بن عبيد الله نصرانية. قال ابن القيم في كتابه " أحكام أهل الذمة " : والمقصود أن الله سبحانه أباح لنا المحصنات من أهل الكتاب، وفعله أصحاب نبينا ﷺ فتزوج عثمان نصرانية ، وتزوج طلحة بن عبيد الله نصرانية ، وتزوج حذيفة يهودية³.

¹ - انظر : في ظلال القرآن / سيد قطب / مرجع سابق / ج 2 / ص 848 .

² - انظر : البداية والنهاية / ابن كثير / ط مكتبة المعارف بيروت / ج 7 / ص 153.

³ - انظر: أحكام أهل الذمة/ ابن القيم/ ج2/ ص421/ ط دار العلم للملايين/ ط الأولى 1961م.

وقيل إن معاوية رضي الله عنه كانت زوجته ميسون بنت بحدل الكلبية كانت نصرانية، وقد ولدت له يزيد وأمة رب المشارق وماتت صغيرة.

2 - النصارى ينفق عليهم من الصدقات :

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى جواز إخراج زكاة الأموال ، قال السرخسي في المبسوط : إن زفر صاحب أبي حنيفة يجيز إعطاء الزكاة للذمي .

وقد رجّح العلامة القرضاوي عدم إعطاء أهل الذمة من الزكاة الواجبة ثم قال : ولكن لا مانع من إعطاء الذمي الفقير من الزكاة ، واشترط الشيخ شرطين وهما :

1. أن يكون في الأموال سعة .

2. وألا يكون في إعطاءه إضرار بفقراء المسلمين .

ثم قال : وحسبنا عموم الآية وفعل عمر ، وأقوال من ذكرنا من الفقهاء . وهذه قمة من التسامح لم يرتفع إليها دين من قبل .¹

ثم أكد الشيخ القرضاوي: أن من منع الذمي من سهم الفقراء فإنه لم يمنعه من سهم المؤلفه قلوبهم يقول الشيخ : وهذا إذا كان يعطى باسم الفقر والحاجة، أما إذا أعطي تأليفاً لقلبه، وتحبيباً للإسلام إليه، أو ترغيباً له في نصرته، والولاء لأمته ولدولته، فقد رجحنا بالأدلة الناصعة من كتاب الله وسنة رسوله جواز ذلك، وبقاء هذا السهم إلى ما شاء الله، وإن

¹ - انظر : فقه الزكاة / د يوسف القرضاوي / ج 2 / ص 752 / طبعة مكتبة وهبة / ط الحادية والعشرون / ط 1994 م .

كنا اخترنا أن التأليف وإعطاء المؤلف قلوبهم: إنما هو من شأن الحكومة الإسلامية لا من شأن الأفراد، ويمكن أن تقوم الجمعيات الإسلامية في ذلك مقام الحكومات.¹

ثم أكد الشيخ على أمر آخر وهو عدم إهمال الذمي حتى يموت جوعاً فقال: ولا بد من أن أنبه هنا على أن رأي من قالوا بعدم إعطاء الذمي من الزكاة؛ ليس معناه تركه للجوع والعري. كلا. بل يُعان من موارد بيت المال الأخرى، كالفيء وخمس الغنائم والمعادن والخراج وغيرها . وقد ذكر أبو عبيد في " الأموال " كتاب عمر بن عبد العزيز لعامله على البصرة وفيه : (وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه، وضعفت قوته وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه ...) ومعنى " فأجر عليه " : اجعل له شيئاً جارياً، وراتباً دورياً، والجميل حقاً أنه لم يدع أهل الذمة حتى يطلبوا هم المعونة؛ بل طلب الخليفة من الوالي أن يبادر هو فينظر في حالاتهم ومطالبهم فيسدها من بيت المال . وهذا هو عدل الإسلام.²

وأما زكاة الفطر فقد قال أبو حنيفة بجواز إخراجها لفقراء أهل الذمة، وإن خالف الجمهور في ذلك . قال القرضاوي : وسبب اختلافهم : هل سبب جوازها هو الفقر فقط؟ أو الفقر والإسلام معاً ؟ فمن قال : الفقر والإسلام لم يجزها للذميين. ومن قال : الفقر فقط أجازها لهم . واشترط قوم في أهل الذمة الذين تجوز لهم أن يكونوا رهباناً .

¹ - انظر : فقه الزكاة / مرجع سابق / ج 2 / ص 753 .

² - انظر : فقه الزكاة / مرجع سابق / ج 2 / ص 753 754 .

روى ابن أبي شيبة عن أبي ميسرة : أنه كان يعطي الرهبان صدقة الفطر، وعن عمرو بن ميمون، وعمرو بن شرحبيل، ومرة الهمداني : أنهم كانوا يعطون منها الرهبان .

وهي لفظة إنسانية تُنبئ عن روح الإسلام السمح، الذي لا ينهى عن البر بمخالفيه، الذين لم يقاتلوا أهله ويعادوهم، فلا غرو أن تشمل مسرة العيد كل من يعيش في كنف المسلمين، ولو كان من الكفار في نظره . على أن هذا إنما يكون بعد أن يستغني فقراء المسلمين أولاً¹.

3 - أماكن العبادة تُصان وتُحمى :

ومن أروع ما جاء به الإسلام : حمايته لدور العبادة ، حتى وإن كانت الدور غير المساجد ، كالبيع والصلوات والكنائس ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ الحج : 39 ، 40 .

قال العلامة ابن القيم في كتابه " أحكام أهل الذمة " في تفسيره لهذه الآية : قال الحسن : " يدفع عن مصليات أهل الذمة بالمؤمنين " . وعلى هذا القول لا يحتاج إلى التقدير الذي قدره أصحاب القول الأول ؛ وهذا ظاهر اللفظ ، ولا إشكال فيه بوجه : فإن الآية دلت على الواقع ، لم تدل على كون الأمكنة - غير المساجد - محبوبة مرضية له .

¹ - انظر : فقه الزكاة / مرجع سابق / ج 2 / ص 1011 ، 1012 .

لكنه أخبر أنه لولا دفعه الناس بعضهم ببعض لهدمت هذه الأمكنة التي كانت محبوبة له قبل الإسلام، وأقر منها ما أقر بعده وإن كانت مسخوطة له، كما أقر أهل الذمة، وإن كان يبغضهم ويمقتهم ، ويدفع عنهم بالمسلمين مع بغضه لهم، وهكذا يدفع عن مواضع متعبداتهم بالمسلمين، وإن كان يبغضها، وهو سبحانه يدفع عن متعبداتهم التي أُقروا عليها شرعاً وقدرأ: فهو يحب الدفع عنها وإن كان يبغضها كما يحب الدفع عن أربابها وإن كان يبغضهم.

وهذا القول هو الراجح إن شاء الله تعالى، وهو مذهب ابن عباس في الآية.

قال ابن أبي حاتم في تفسيره : عن ابن عباس رضي الله عنهما (لهدمت صوامعُ وبيع) قال : الصوامع التي يكون فيها الرهبان ، والبيع مساجد اليهود والصلوات كنائس النصارى، والمساجد مساجد المسلمين. قال ابن أبي حاتم : عن أبي العالية قال: " لهدمت صَوَامِع " قال: صوامع وإن كان يشرك به! وفي لفظ: إن الله يحب أن يذكر ولو من كافر!¹

¹ - انظر: أحكام أهل الذمة / ابن القيم / مرجع سابق / ج 2 / ص 667، 668 .

خامساً: المسلمون في الحبشة

ولعل هجرة المسلمين إلى الحبشة الأولى والتي كانت في رجب سنة 5 من النبوة¹، والثانية كذلك. وفيهما كان التقاء الإسلام بالنصرانية لأول مرة، وفيها بدت أخوة الدين ظاهرة، وإن شئت فقل بدت وحدة الدين حيث قال النجاشي: (إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة) .

وجاء في زاد المعاد للإمام ابن القيم :

لما كثر المسلمون وخاف منهم الكفار ، اشتد أذاهم لهم وفتنتهم إياهم ، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الهجرة إلى الحبشة وقال : إن بها ملكاً لا يظلم الناس عنده فهاجر من المسلمين اثنا عشر رجلاً وأربع نسوة ، منهم عثمان بن عفان ؛ وهو أول من خرج ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ، فأقاموا في الحبشة في أحسن جوار فبلغهم أن قريشاً أسلمت وكان هذا الخبر كذباً فرجعوا إلى مكة ، فلما بلغهم أن الأمر أشد مما كان، رجع منهم من رجع، ودخل جماعة فلقوا من قريش أذى شديداً ، وكان ممن دخل عبد الله بن مسعود ثم أذن لهم في الهجرة ثانياً إلى الحبشة ، فهاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان فيهم عمار فإنه يشك فيه، ومن النساء ثمان عشرة امرأة، فأقاموا عند النجاشي على أحسن حال، فبلغ ذلك قريشاً فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة في جماعة، ليكيدوهم عند النجاشي، فرد الله كيدهم في نحورهم² .

¹ - انظر : الرحيق المختوم / الشيخ صفى الرحمن المباركفوري / ط دار الفكر ط الأولى 1991 / ص 81 .

² - انظر : زاد المعاد / الإمام ابن القيم / ط الثانية / ط 1997 / ج 1 / ص 95-96 .

وذكر في الجزء الثالث ما نصه : فانحاز المهاجرون إلى مملكة
أصحمة النجاشي آمنين، فلما علمت قريش بذلك بعثت في أثرهم عبد الله
بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بهدايا وتحف من بلدهم إلى النجاشي،
ليردهم عليهم، فأبى ذلك عليهم، وشفعوا إليه بعظماء بطارفته فلم يجيبهم
إلى ما طلبوا، فوشوا إليه أن هؤلاء يقولون في عيسى قولا عظيماً.
يقولون : إنه عبد الله، فاستدعى المهاجرين إلى مجلسه، ومقدمهم جعفر
بن أبي طالب فلما أرادوا الدخول عليه قال جعفر : يستأذن عليك حزب
الله فقال للآذن : قل له يعيد استئذانه ، فأعاده عليه فلما دخلوا عليه قال
: ما تقولون في عيسى ؟ فتلا عليه جعفر صدرأ من سورة ﴿ كهيعص ﴾
فأخذ النجاشي عودا من الأرض فقال : ما زاد عيسى على هذا ولا هذا
العود، فتناخرت بطارفته عنده ، فقال : وإن نخرتم قال: اذهبوا فأنتم
سيوم بأرضي من سبكم غرم والسيوم الآمنون في لسانهم، ثم قال
للرسولين : لو أعطيتُموني دبرا من ذهب ، يقول : جبلا من ذهب ما
أسلمتهم إليكما ، ثم أمر فردت عليهما هداياهما، ورجعا مقبوحين¹.
أما لماذا اختار النبي صلى الله عليه وسلم الحبشة؟ فيرجع هذا لعدة
أسباب منها:

صلاح النجاشي وعدله: حيث قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "لو
خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد"، وقال: "وكان
بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي، لا يظلم أحد بأرضه".
كون الأحباش يدينون بالنصرانية، وهي أقرب إلى الإسلام عبدة
الأوثان والأصنام.

¹ - انظر : زاد المعاد / مرجع سابق / ج 3 / ص 28 .

سادساً: الوفود

ولما توافدت الوفود على رسول الله ﷺ كان هناك وفود نصرانية ،
ومن هذه الوفود :

1- وفد النجاشي وأهل الحبشة :

قال ابن كثير في تفسيره : قال محمد بن إسحاق في السيرة : قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أندية حول الكعبة، فلما فرغوا عن مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل ابن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبتكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقت دينكم وصدقتموه فيما قال، ما نعلم ركبا أحق منكم، أو كما قالوا لهم. فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً. قال: وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت؟ قال: ما زلت أسمع من علمائنا أنهم نزلن في النجاشي وأصحابه رضي الله عنهم .¹

¹ - تفسير ابن كثير/ مرجع سابق/ ج 3 / ص 395 .

2 - وفد نجران : ويعد وفد نجران من الوفود المتعددة التي قدمت على رسول الله ﷺ ، بيد أن القرآن خص هذه الوفود بحديث مفصل في القرآن جاء ذلك في سورة آل عمران . قال الإمام ابن كثير :

وقد روى البيهقي في دلائل النبوة قصة وفد نجران مطولة جداً، ولنذكره فإن فيه فوائد كثيرة وفيه غرابة ، وفيه مناسبة لهذا المقام ؛ قال البيهقي : إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه (" طس " سليمان) : باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران : فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب . والسلام .

فلما أتى الأسقف الكتاب وقرأه فزع به وذعره ذعراً شديداً ، وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له: شرحبيل بن وداعة وكان من همدان ولم يكن أحد يدعى إذا نزلت معضلة قبله ؛ لا الأيهم ولا السيد ولا العاقب فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إلى شرحبيل فقرأه فقال الأسقف : يا أبا مريم ما رأيك ؟ فقال شرحبيل : قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما يؤمن أن يكون هذا هو ذاك الرجل، ليس لي في أمر النبوة رأي، ولو كان في أمر من أمور الدنيا لأشرت عليك فيه برأيي واجتهدت لك. فقال له الأسقف : تتح فاجلس فتتحي شرحبيل. فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له: عبد الله بن شرحبيل، وهو من

ذي أصبح من حمير، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه. فقال مثل قول شرحبيل . فقال له الأسقف : تنح فاجلس ، فتنحى عبد الله. فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له: جبار بن فيض من بني الحارث بن كعب، أحد بني الحماس. فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه . فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله فأمره الأسقف فتنحى فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جميعا أمر الأسقف بالناقوس فضرب به، ورفعت النيران والمسوح في الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار وإذا كان فزعهم ليلا ضربوا بالناقوس، ورفعت النيران في الصوامع، فاجتمعوا حين ضرب بالناقوس، ورفعت المسوح، أهل الوادي أعلاه وأسفله، وطول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع وفيه ثلاث وسبعون قرية، وعشرون ألف مقاتل، فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأي أهل الرأي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني وعبد الله بن شرحبيل الأصبحي وجبار فيأتونهم بخبر رسول الله ﷺ، فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم، ولبسوا حللا لهم يجرونها من حبرة وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ فسلموا عليه فلم يرد عليهم، وتصدوا لكلامه نهارا طويلا فلم يكلمهم، وعليهم تلك الحلل وخواتيم الذهب، فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وكانا معرفة لهما، فوجدوهما في ناس من المهاجرين والأنصار في مجلس فقالوا: يا عثمان ويا عبد الرحمن إن نبيكم كتب إلينا كتابا فأقبلنا مجيبين له، فأتيناك فسلمنا عليه فلم يرد سلامنا، وتصدينا لكلامه نهارا طويلا فأعيانا أن يكلمنا، فما الرأي منكما أترون أن

نرجع ؟ فقالا لعلي بن أبي طالب وهو في القوم : ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم ؟ فقال علي لعثمان وعبد الرحمن : أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم، ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودون إليه، ففعلوا. فسلموا عليه فرد سلامهم، ثم قال: والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرة الأولى وإن إبليس معهم، ثم سألهم وسأله فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له : ما تقول في عيسى ، فإننا نرجع إلى قومنا، ونحن نصارى يسرنا إن كنت نبياً أن نسمع ما تقول فيه؟ فقال رسول الله ﷺ : ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيموا حتى أخبركم بما يقول لي ربي في عيسى، فأصبح الغد وقد أنزل الله هذه الآية : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ إلى قوله : ﴿الْكَاذِبِينَ﴾ آل عمران: 59 - 61، فأبوا أن يقرؤا بذلك، فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعد ما أخبرهم الخبر ؛ أقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميل له وفاطمة تمشي في ظهره للملاعن، وله يومئذ عدة نسوة. فقال شرحبيل لصاحبيه: لقد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأيي ، وإنني والله أرى أمراً ثقيلاً ، والله لئن كان هذا الرجل مبعوثاً فكنا أول العرب طعننا في عينيه، ورداً عليه أمره، لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتى يصيبنا بجائحة، وإننا لأدنى العرب منهم جواراً، ولئن كان هذا الرجل نبياً مرسلأ فلاعناه لا يبقى منا على وجه الأرض شعر ولا ظفر إلا هلك، فقال صاحبه : فما الرأي يا أبا مريم ؟ فقال : أرى أن أحكمه فإنني أرى رجلاً لا يحكم شططا أبداً. فقالا له : أنت وذاك. قال : فتلقى شرحبيل رسول الله ﷺ فقال له: إنني قد رأيت خيراً من ملاعنتك . فقال

: وما هو ؟ فقال : حكمك اليوم إلى الليل وليلتك، فمهما حكمت فينا فهو جائز، فقال رسول الله ﷺ : لعل وراءك أحد يثرب عليك فقال شرحبيل : سل صاحبي فسألها فقالا : ما يرد الوادي ولا يصدر إلا عن شرحبيل؛ فرجع رسول الله ﷺ فلم يلاعنهم، حتى إذا كان من الغد أتوه، فكتب لهم هذا الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب النبي محمد رسول الله لنجران، إن كان عليهم حكمه في كل نمرة وكل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق فاضل عليهم وترك ذلك كله لهم على ألفي حلة ، وذكر تمام الشروط وبقية السياق ¹.

وعقد ابن القيم فصلاً لما في هذه القصة من فقه واستنباطات ومما ذكر:

- جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين.
- تمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين وفي مساجدهم أيضاً، إذا كان ذلك عارضاً، ولا يمكنون من اعتياد ذلك .
- جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجة عليهم. ²

3 - وفد عبد القيس :

قال ابن القيم : قال ابن إسحاق: قدم على رسول الله الجارود بن بشر بن المعلى وكان نصرانيا ف جاء رسول الله في وفد عبد القيس فقال: يا رسول الله إني على دين وإني تارك ديني لدينك، فتضمن لي

¹ - انظر : تفسير القرآن العظيم / مرجع سابق / ج 1 / ص 370 .

² - انظر : زاد المعاد / مرجع سابق / ج 3 / ص 557 ، 558.

بما فيه؟ قال: نعم. أنا ضامن لذلك، إن الذي أدعوك إليه خير من الذي كنت عليه، فأسلم وأسلم أصحابه ثم قال: يا رسول الله احملنا. فقال: والله ما عندي ما أحملكم عليه. فقال: يا رسول الله إن بينا وبين بلادنا ضوال من ضوال الناس أفنتبلغ عليها؟ قال: لا تلك حرق النار.¹ ، وفي الصحيح من حديث ابن عباس : أن وفد عبد القيس قدموا على النبي ﷺ فقال : ممن القوم ؟ فقالوا : من ربيعة. فقال: مرحبا بالوفد غير خزايا ولا ندامى.²

4 - وفد طييء :

قال ابن إسحاق : وقدم على رسول الله ﷺ وفد طييء، وفيهم زيد الخيل وهو سيدهم، فلما انتهوا إليه كلمهم وعرض عليهم الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم، وقال رسول الله ﷺ : " ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل: فإنه لم يبلغ كل ما فيه " ثم سماه زيد الخير.³

5 - قدوم عدي بن حاتم :

قال ابن إسحاق : قال عدي بن حاتم: ما كان رجل من العرب أشد كراهية لرسول الله ﷺ مني حين سمعت به، وكنت امرءا

¹ - انظر : سيرة ابن هشام / ج2 / ص 575 . وانظر : زاد المعاد / مرجع سابق/ ج 3 ص 530 .

² - رواه البخاري في الأدب رقم (6176) عن ابن عباس .

³ - انظر : سيرة ابن هشام / مرجع سابق/ ج2 / ص 578 . وانظر : زاد المعاد / مرجع سابق/ ج 3 ص 538 .

شريفًا، وكنت نصرانيا، وكنت أسير قومي بالمرباع ، وكنت في نفسي على دين، وكنت ملكا في قومي ، فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته ، فقلت لغلام عربي كان لي وكان راعيا لإبلي: لا أبا لك اعد لي من إبلي أجمالا ذللا سمانا فاحبسها قريبا مني ، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطىء هذه البلاد فأذني، ففعل ، ثم إنه أتاني ذات غداة فقال : يا عدي ما كنت صانعا إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن ، فإني قد رأيت رايات فسألت عنها، فقالوا : هذه جيوش محمد . قال: فقلت: فقرب إليّ أجمالي. فقربها. فاحتملت بأهلي وولدي ، ثم قلت : ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام ، وخلفت بنتا لحاتم في الحاضرة، فلما قدمت الشام أقمت بها وتحالفني خيل رسول الله ﷺ فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت ، فقدم بها على رسول الله في سبایا من طیء وقد بلغ رسول الله هربي إلى الشام فمر بها رسول الله ﷺ . فقالت : يا رسول الله غاب الوافد وانقطع الوالد وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة ، فمن عليّ من الله عليك . قال: من وافدك؟ قالت: عدي بن حاتم . قال : الذي فر من الله ورسوله. قالت: فمن عليّ. قال: فلما رجع ورجل إلى جنبه يرى أنه علي قال: سليه الحملان . قالت: فسألته فأمر لها به . قال: عدي فأنتني أختي فقالت : لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، انتّه راغبا أو راهبا فقد أتاه فلان فأصاب منه ، وأتاه فلان فأصاب منه ، قال عدي: فأنتيته وهو جالس في المسجد ، فقال القوم هذا عدي بن حاتم ، وجئت بغير أمان ولا كتاب ، فلما دفعت إليه أخذ بيدي ، وقد كان قبل ذلك قال: "إني أرجو أن يجعل الله

يده في يدي " قال: فقام لي فلقيته امرأة ومعها صبي فقالا : إن لنا إليك حاجة فقام معهما حتى قضى حاجتهما ، ثم أخذ بيدي حتى أتى داره ، فألقت له الوليدة وسادة فجلس عليها ، وجلست بين يديه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: " ما يُفرك؟ أيفرك أن تقول لا إله إلا الله ؟ فهل تعلم من إله سوى الله. قال: قلت: لا . قال: ثم تكلم ساعة ثم قال: إنما تفر أن يقال: الله أكبر . وهل تعلم شيئا أكبر من الله. قال: قلت: لا. قال: فإن اليهود مغضوب عليهم وإن النصارى ضالون . قال: فقلت: إني حنيف مسلم. قال: فرأيت وجهه ينبسط فرحا. قال ثم أمرني فأنزلت عند رجل من الأنصار.¹

¹ - انظر : سيرة ابن هشام / مرجع سابق / ج 2 / ص 578-581 . وانظر : زاد المعاد / مرجع سابق / ج 3 / ص 452-454 .

سابعاً : مكاتبة الملوك والأمراء النصارى . كما كاتب غيرهم

وقد كاتب النبي ﷺ عدداً من الملوك والأمراء، يدعوهم إلى دين الله سبحانه ، وكان من هؤلاء الملوك والأمراء من يدين بال نصرانية؛ فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، ومن كاتبهم النبي ﷺ :

1 - النجاشي ملك الحبشة :

كتب ﷺ إلى النجاشي : " بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة: أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحسنة فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاتة على طاعته، وأن تتبني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي. والسلام على من اتبع الهدى " .

وبعث بالكتاب مع عمرو بن أمية الضمري قال ابن إسحاق: إن عمرا قال له: يا أصحمة إن عليّ القول وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقة علينا، وكأننا في الثقة بك منك، لأننا لم نظن بك خيراً قط إلا لنأناه، ولم نخفك على شيء قط إلا أمناءه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد، وقاض لا يجور، وفي ذلك موقع الحز وإصابة المَقْصِل، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم، وقد

فرق النبي ﷺ رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له، وأمنك على ما خافهم عليه بخير سالف وأجر ينتظر، فقال النجاشي: أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل، وأن العيان ليس بأشقى من الخبر. ثم كتب النجاشي جواب كتاب النبي ﷺ: "بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تُفروقا، إنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين والثفروق علاقة ما بين النواة والقشر. وتوفي النجاشي سنة تسع وأخبر رسول الله بموته ذلك اليوم فخرج بالناس إلى المصلى فصلى عليه وكبر أربعاً¹.

قال ابن القيم معلقا على ما سبق : وهذا وهم والله أعلم وقد خلط راويه ولم يميز بين النجاشي الذي صلى عليه وهو الذي آمن به وأكرم أصحابه ، وبين النجاشي الذي كتب إليه يدعوه ، فهما اثنان وقد جاء ذلك مبينا في صحيح مسلم أن رسول الله كتب إلى النجاشي وليس بالذي صلى عليه².

¹ - انظر : زاد المعاد / مرجع سابق/ ج 3 / ص 601-603 .

² - انظر : زاد المعاد / مرجع سابق/ ج 3 / ص 603 . والحديث عند مسلم في الجهاد رقم (1774) عن أنس.

2 - المقوقس عظيم مصر :

يعد المقوقس عظيم مصر أول قائد نصراني يرأسه رسول الله

ﷺ بعد النجاشي، وقد سجل التاريخ هذه المراسلة وهاك نص الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم القبط : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: 64 ، وبعث به مع حاطب بن أبي بلتعة فلما دخل عليه قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بغيرك بك، فقال: إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه فقال حاطب: ندعوك إلى دين الله وهو الإسلام الكافي به الله ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قریش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى؛ إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن؛ إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوماً فهم من أمته فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي ولسنا ننهك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به. فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء، والإخبار

بالنجوى، وسأنظر وأخذ كتاب النبي فجعله في حق من عاج، وختم عليه ودفعه إلى جارية له .

ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية فكتب إلى رسول الله : لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك ، أما بعد : فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه وقد علمت أن نبيا بقي وكنت أظن أن يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك " ولم يزد على هذا ولم يسلم، والجاريتان: مارية، وسيرين، والبغلة: دلدل بقيت إلى زمن معاوية ، وقد قبل النبي ﷺ من المقوقس هديته .¹

3 - هرقل عظيم الروم :

عن أبي سفيان بن حرب أخبره: أن هرقل أرسل إليه في ركب من قریش، وكانوا تجارا بالشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قریش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبا، فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل عن هذا الرجل، فإن كذبتني فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأتروا عليّ كذبا لكذبت عنه. ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشرف

¹ - انظر : زاد المعاد / مرجع سابق / ج 3 / ص 603 ، 604 .

الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آبائكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتيسي بقول قيل قبله. وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم

عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أنني أعلم أنني أخلص إليه، لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين؛ فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. آل عمران: 64. قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر. فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام. وكان ابن الناطور، صاحب إيلياء وهرقل، أسقفاً على نصارى الشام، يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء، أصبح يوماً خبيث النفس، فقال بعض بطارقه: قد استكرنا هيئتك، قال ابن الناطور: وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر، فمن يختن من هذه الأمة؟ قالوا: ليس يختن إلا اليهود، فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مداين ملكك، فيقتلوا من فيهم من اليهود، فبينما هم على أمرهم، أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله

ﷺ ، فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختن هو أم لا؟ فنظروا إليه، فحدثوه أنه مختن، وسأله عن العرب، فقال: هم يختنن، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر. ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص، فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ ، وأنه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبائعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم علي، وقال: إني قلت مقالتي أنفا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له، ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل.¹

¹ - متفق عليه . رواه البخاري في بدء الوحي رقم (7) ومسلم في الجهاد رقم (1773) عن ابن عباس.

ثامناً : مارية القبطية

تذكر كتب السير : أن النبي ﷺ كان له من السراري اثنتين ، وذكر أبو عبيدة أنهن أربعة :

1. مارية القبطية .
2. ريحانة النضرية أو القرظية .
3. جميلة أصابها في بعض السبي .
4. جارية وهبتها له زينب .

وعلى كل فإن تسري النبي ﷺ بمارية القبطية، أنشأ صلة قوية بين المسلمين والقبط ، فهي في المقام الأول أم لإبراهيم ولد النبي ﷺ ، بيد أن هذا التسري قوى العلاقة بين المسلمين والنصارى ، فقد كانت السيدة مارية مهداة من المقوقس عظيم مصر ، وهذا ما حدا بالنبي ﷺ أن يقول : " إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً " ¹ .

¹ - رواه مسلم في فضائل الصحابة رقم (2543) عن أبي ذر .

تاسعاً: تجاوزات النصارى قبل مؤتة

كان المبدأ الذي تعامل به النبي ﷺ مع النصارى وغيرهم يتمثل في قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ البقرة 256 . وكان ﷺ انطلاقا من عالمية الدعوة الإسلامية يرسل الملوك والأمراء ، ومن هؤلاء ملوك وأمراء النصارى، كما ذكرنا من قبل ، وقد بدت من النصارى ملوكا وأفرادا بعض التجاوزات ومن ذلك :

1. مقتل: فروة بن عمرو: ذكر ابن كثير: أن فروة بن عمرو بعث إلى رسول الله ﷺ سولاً بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء، فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم ، فقال في محبسه ذلك:

طرقت سليمى موهنا أصحابي	والروم بين الباب والقروان
صد الخيال وساء ما قد رأى	وهممت أن أغفى وقد أبكاني
فلئن هلكت لتفقدن أخاكم	ولئن بقيت ليعرفن مكاني
ولقد جمعت أجل ما جمع الفتى	من جودة وشجاعة وبيان

قال : وزعم الزهري أنهم لما قدموه ليقتلوه قال :

بلغ سراة المسلمين بأنني
سلم لربي أعظمي ومقامي
قال : ثم ضربوا عنقه وصلبوه على ذلك الماء، رحمه الله ورضي عنه وأرضاه وجعل الجنة مثواه .¹

¹ - انظر : البداية والنهاية / مرجع سابق / ج 5 / ص 85 ، 86 ، و انظر : زاد المعاد / مرجع سابق / ج 3 / ص 564.

2. **مقتل الحارث بن عمير الأزدي:** ذكر ابن سعد: أن رسول الله ﷺ قد بعث إلى ملك بصرى الحارث بن عمير الأزدي أحد بني لهب بكتابه ، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني — النصراني — فأوثقه رباطا ثم قدمه فضرب عنقه ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر فبعث البعوث¹.

3. **موقف الحارث بن أبي شمر الغساني:** وذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى أيضا : أن شجاع بن وهب الأسدي أرسله رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني يدعو به إلى الإسلام ، وكتب معه كتابا ، قال شجاع : فأتيت إليه وهو بغوطة دمشق، وهو مشغول بتهيئة الإنزال والألطف لقيصر، وهو قادم من حمص إلى إيلياء ، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة ، فقلت لحاجبه : إني رسول رسول الله ﷺ إليه . فقال : لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا ، وجعل حاجبه وكان روميا اسمه مرى يسألني عن رسول الله ﷺ ، فكنت أحدثه عن صفة رسول الله ﷺ وما يدعو إليه ، فيرق حتى يغلبه البكاء، ويقول: إني قد قرأت الإنجيل فأجد صفة هذا النبي بعينه ، فأنا أومن به وأصدق ، وأخاف من الحارث أن يقتلني ، وخرج الحارث يوما فجلس ووضع التاج على رأسه ، فأذن لي عليه فدفعته إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه ، ثم رمى به وقال : من ينتزع مني ملكي ؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته ، عليّ بالناس . فلم يزل يفرض حتى قام وأمر بالخيول تتعل ، ثم قال : أخبر صاحبك ما

¹ - انظر : الطبقات الكبرى / ابن سعد / ج 2 / طبعة دار صادر بيروت بدون / ص 128 ، وانظر : زاد المعاد/ مرجع سابق / ج 3 / ص 373 .

ترى ، وكتب إلى قيصر يخبره خبري وما عزم عليه . فكتب إليه قيصر
ألا تسير إليه واله عنه ، ووافني بإيلياء ، فقدمت على النبي ﷺ فأخبرته
، فقال : باد ملكه . فمات الحارث بن أبي شمر عام الفتح .¹
4. **النصارى يقتلون خمسة عشر صاحبياً** : وذكر ابن جرير
الطبري: أن رسول الله ﷺ أرسل في العام الثامن سرية عمرو بن كعب
الغفاري إلى ذات أطلاق ، فخرج عمرو بن كعب الغفاري في خمسة
عشر رجلا ، حتى انتهى إلى ذات أطلاق ، فوجد جمعا كثيرا فدعاهم
إلى الإسلام فأبوا أن يجيبوا ، فقتلوا أصحاب عمرو جميعا، وتحامل حتى
بلغ المدينة . قال الواقدي : وذات أطلاق من ناحية الشام ، وكانوا من
قضاة ورأسهم رجل يقال له سدوس .²

¹ - انظر : الطبقات الكبرى / مرجع سابق / ج 1 / ص 261.

² - انظر : تاريخ الأمم والملوك / الطبري / ط دار الكتب العلمية بيروت / ط الأولى 1407
هـ / ج 2 / ص 145 .

عاشراً: غزوة مؤتة

تعد غزوة مؤتة أول لقاء حربي دار بين المسلمين والنصارى — وسببها كما ذكرنا من قبل : أن رسول الله ﷺ كان قد بعث إلى ملك بصرى الحارث بن عمير الأزدي أحد بني لهب بكتابه ، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني — النصراني — فأوثقه رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر فبعث البعوث¹.

يقول الإمام ابن كثير : وهي سرية زيد بن حارثة في نحو من ثلاثة آلاف إلى أرض البلقاء من أرض الشام ، قال محمد بن إسحاق بعد قصة عمرة القضية : فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرم وصفرًا وشهري ربيع، وبعث في جمادى الأولى بعثه إلى الشام الذين أصيبوا بمؤتة، فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير قال : بعث رسول الله ﷺ بعثه إلى مؤتة في جمادى الأولى من سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال : " إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس " ، فتجهز الناس ثم تهيئوا للخروج وهم ثلاثة آلاف²، وقد قتل القادة الثلاثة ، وولي خالد بن الوليد الجيش ثم عاد ثانية إلى المدينة .

¹ - انظر : الطبقات الكبرى / مرجع سابق / ج 2 / ص 128 ، وانظر : زاد المعاد / مرجع سابق / ج 3 / ص 373 .

² - انظر : البداية والنهاية / مرجع سابق / ج 4 / ص 241.

حادي عش: غزوة تبوك

وكانت هي اللقاء الثاني بين المسلمين والنصارى ، بيد أن النبي ﷺ لم يلق عدواً فعاد إلى المدينة قال ابن كثير : قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله بالمدينة ما بين ذي الحجة إلى رجب — يعني من سنة تسع — ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم ، وذلك في زمان عسرة من الناس ، وشدة الحر ، وجذب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص في الحال من الزمان الذي هم عليه ، وكان رسول الله قلّ ما يخرج في غزوة إلا كنى عنها ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بينها للناس لبعد المشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذي يصمد إليه ؛ ليتأهب الناس لذلك أهبطه ، فأمرهم بالجهاد وأخبرهم أنه يريد الروم ، فقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض : (لا تنفروا في الحر) زهادة في الجهاد ، وشكا في الحق ، وإرجافاً بالرسول ، فأنزل الله فيهم : ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ {81} فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ {82} ﴾ التوبة 81 ، 82 .

قال ابن إسحاق : ثم إن رسول الله ﷺ جد في سفره ، وأمر الناس بالجهاز والانكماش ، وحض أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل

الله ، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا ، وأنفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها.

ثم استتب برسول الله ﷺ سفره وأجمع السير ، فلما خرج يوم الخميس ضرب عسكره على ثنية الوداع ومعه زيادة على ثلاثين ألفاً من الناس ، وضرب عبد الله بن أبي عدو الله عسكره أسفل منه وما كان فيما يزعمون بأقل العسكرين ، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أبي في طائفة من المنافقين وأهل الريب .

قال ابن إسحاق : ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك، أتاه يحنة بن رؤبة صاحب إيلة، فصالح رسول الله، وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأذرح وأعطوه الجزية ، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فهو عندهم .

قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة لم يجاوزها، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة¹.

¹ - لمعرفة أحداث هذه الغزوة بالتفصيل انظر : البداية والنهاية / مرجع سابق / ج 4 / ص 375 وما بعدها .

ثاني عشر: المعارك الإسلامية

وقد التقى المسلمون بالنصارى بعد ذلك في الفتوحات الإسلامية ،
ومن أهم هذه المعارك ¹:

• اليرموك .

• فتح بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا .

وكان للقاء المسلمين بالنصارى في هذه المعارك أثر عظيم ، وكان
هذا الأثر يظهر من خلال لقاءات بعض النصارى بالمسلمين ، وكذلك عند
مصارحة بعض الجنود قادتهم وأمرائهم بأسباب غلبة المسلمين على قلة
عددهم ، وتفوقهم مع النصارى على كثرة عددهم وعتادهم، وكان هذا
الاحتكاك ينتهي بإسلام الطرف الآخر، أو على الأقل إبداء إعجابه بهذا
الدين الجديد، وأذكر هنا بعض هذه المواقف التي تظهر هذا الأثر :

1 – موقف خالد بن الوليد مع جرجة :

خرج جرجة – أحد الأمراء الكبار – حتى كان بين الصفيين ونادى
ليخرج إلي خالد ، فخرج إليه خالد وأقام أبا عبيدة مكانه ، فوافقه بين
الصفيين حتى اختلفت أعناق دابتيهما ، وقد أمن أحدهما صاحبه ، فقال
جرجة : يا خالد أصدقني ولا تكذبنني فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعني

¹ - لمعرفة أحداث هذه المعارك بالتفصيل انظر : البداية والنهاية / مرجع سابق / ج 7 / ص
11 وما بعدها .

فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله ، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكمه، فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟ قال : لا . قال : فبم سميت سيف الله ؟ قال : إن الله عز وجل بعث فينا نبيه فدعانا، فففرنا عنه ونأينا عنه جميعاً ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه ؛ فقال : أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ودعا لي بالنصر ، فسميت سيف الله بذلك ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين . قال : صدقتني . ثم أعاد عليه جرجة : يا خالد أخبرني إلام تدعوني ؟ قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله . قال : فمن لم يجبكم ؟ قال : فالجزية ومنعهم . قال : فإن لم يعطها ؟ قال : نوذنه بحرب ثم نقاتله . قال : فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم ؟ قال منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا ، وأولنا وآخرنا . ثم أعاد عليه جرجة : هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل مالكم من الأجر والذخر ؟ قال : نعم وأفضل . قال : وكيف يساويكم وقد سبقتموه ؟ قال : إنا دخلنا في هذا الأمر وبايعنا نبينا وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ، ويخبرنا بالكتب ، ويرينا الآيات ؛ وحق لمن رأى ما رأينا ، وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع ، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج ، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية ؛ كان أفضل منا . قال جرجة : بالله لقد صدقتني ولم تخادعني ولم تألفني ؟ قال : بالله لقد صدقتك وما بي إليك ولا إلى أحد منكم وحشة ، وإن الله

لولي ما سألت عنه . فقال : صدقتني ، وقلب الترس ومال مع خالد ، وقال : علمني الإسلام . فمال به خالد إلى فسطاطه فشن عليه قرية من ماء ، ثم صلى ركعتين ، وحملت الروم مع انقلابه إلى خالد، وهم يرون أنها منه حملة فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا المحامية، عليهم عكرمة والحارث بن هشام ، وركب خالد ومعه جرجة والروم خلال المسلمين فتنادى الناس فثابوا، وتراجعت الروم إلى مواقفهم ، فزحف بهم خالد حتى تصافحوا بالسيوف ، فضرب فيهم خالد وجرجة من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب ، ثم أصيب جرجة ولم يصل صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما .¹

2 - موقف هرقل مع واحد من أتباعه :

جاء في كتاب " كتاب الفتوح " : لما نصر الله المسلمين بفحل ، وقدم المنهزمون من الروم على هرقل بأنطاكية ، دعا رجالا منهم فأدخلهم عليه . فقال : حدثوني ويحكم عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم: أليسوا بشرا مثلكم ؟ قالوا : بلى . قال : فأنتم أكثر أو هم ؟ قالوا : بل نحن . قال : فما بالكم ؟ فسكتوا . فقام شيخ منهم وقال : أنا أخبرك: إنهم إذا حملوا صبروا ولم يكذبوا ، وإذا حملنا لم نصبر ونكذب ، وهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويرون أن قتلاهم في الجنة وأحياءهم فائزون بالغنيمة والأجر . فقال : يا شيخ لقد صدقتني.²

¹ - انظر : البداية والنهاية / مرجع سابق / ج 7 / ص 12 وما بعدها ، وانظر : تاريخ الطبري / مرجع سابق / ج 2 / ص 337 وما بعدها .

² - انظر : معجم البلدان / ياقوت الحموي / ط دار الفكر بيروت / ج 3 / ص 280 .

3 - عمرو بن العاص (أرطوبون العرب) وأرطوبون الروم :

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند توليته عمرو بن العاص يقول : والله لأرمن أرطوبون الروم بأرطوبون العرب ، ولما أتى أرطوبون إيلياء أفرج له المسلمون حتى دخلها ، ثم أزالهم إلى أجنادين فانضم علقمة ومسروق ومحمد بن عمرو وأبو أيوب إلى عمرو بأجنادين ، وكتب أرطوبون إلى عمرو بأنك صديقي ونظيري ، أنت في قومك مثلي في قومي ، والله لا تفتتح من فلسطين شيئا بعد أجنادين ، فارجع ولا تغر فتلقى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة ، فدعا عمرو رجلا يتكلم بالرومية فأرسله إلى أرطوبون وأمره أن يغرب ويتنكر ، وقال : استمع ما يقول حتى تخبرني به إذا رجعت إن شاء الله ، وكتب إليه : جاءني كتابك وأنت نظيري ومثلي في قومك ، لو أخطأتك خصلة تجاهلت فضيلتي ، وقد علمت أنني صاحب فتح هذه البلاد ، وأستعدي عليك فلانا وفلانا وفلانا لوزرائه فأقرئهم كتابي ولينظروا فيما بيني وبينك ، فخرج الرسول على ما أمره به حتى أتى أرطوبون فدفع إليه الكتاب بمشهد من النفر ، فاقترأه فضحكوا وتعجبوا ، وأقبلوا على أرطوبون فقالوا : من أين علمت أنه ليس بصاحبها ؟ قال : صاحبها رجل اسمه عمر ثلاثة أحرف . فرجع الرسول إلى عمرو فعرف أنه عمر ، وكتب إلى عمر يستمده ، ويقول : إني أعالج حربا كؤودا صدوما ، وبلادا ادخرت لك فرأيك ، فخرج إليه عمر ¹.

¹ - انظر : البداية والنهاية / مرجع سابق / ج 7 / ص 55 وما بعدها ، وانظر : تاريخ الطبري / مرجع سابق / ج 2 / ص 448 وما بعدها .

4 - عيادة بين الصامت عند المقوقس :

لما حاصر المسلمون بابلون وكان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم، وعليهم المقوقس فقاتلوهم شهرا ، فأرسل المقوقس إلى عمرو : إنكم قد ولجتم في بلادنا، وألحتم على قتالنا ، وطال مقامكم في أرضنا ، وإنما أنتم عصبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم، ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى في أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن يغشاكم جموع الروم، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ، ولعلكم أن تتدموا إن كان الأمر مخالفا لمطلبكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجالا من أصحابكم، نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء ، فلما أتت عمرا رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين، حتى خاف عليهم المقوقس ، فقال لأصحابه : أترون أن يقتلون الرسل ويحبسونهم ويستحلون ذلك في دينهم؟ وإنما أراد عمرو بذلك أنهم يروا حال المسلمين. فرد عليهم عمرو مع رسلهم: إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال: إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين .

فلما جاءته رسل المقوقس قال: كيف رأيتموهم؟ قالوا: رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفع؛

ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم ، فقال عند ذلك المقوقس: والذي يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقوا على الخروج من موضعهم، فرد إليهم المقوقس رسله يقول : لهم ابعثوا إلينا رسلا منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه يكون فيه صلاح لنا ولكم .

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم : عبادة بن الصامت — وكان طوله عشرة أشبار — وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم ، وألا يجيبهم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الثلاث الخصال ، فإن أمير المؤمنين قد تقدم إليّ في ذلك ، وأمرني ألا أقبل شيئا إلا خصلة من هذه الثلاث الخصال ، وكان عبادة أسودا ، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه، تقدم عبادة فهابه المقوقس لسواده وقال : نحوا عني هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني . فقالوا جميعا : إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله . فقال : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم، وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟ قالوا : كلا إنه وإن كان أسودا كما ترى فإنه من أفضلنا موضعا وأفضلنا سابقة وعقلا ورأيا ، وليس ينكر السواد فينا .

فقال المقوقس لعبادة : تقدم يا أسود وكلمني برفق، فإنني أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك علي ازددت لك هيبة. فتقدم إليه عبادة فقال: قد سمعت مقالتك وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي وأشد سوادا مني، وأفزع منظرا، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني، وأنا قد وليت وأدبر شبابي، وإنني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعا، وكذلك أصحابي، وذلك إنما رغبنا وهمتنا الجهاد في سبيل الله، واتباع رضوانه، وليس غزونا عدوا ممن حارب الله لرواية في الدنيا، ولا حاجة للاستكثار منها، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا، وما ييالي أحدنا أكان له قناطر من ذهب، أم كان لا يملك إلا درهما ، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليلته ونهاره ، وشملة يلتحفها ، وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى واقتصر على هذه بيده ، ويبلغه ما كان في الدنيا لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء في الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا في الدنيا: إلا ما يمسك جوعته ويستتر عورته ، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه .

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط؟ لقد هبت منظره وإن قوله لأهيب عندي من منظره ، إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها ، ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال : أيها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك، وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمري ما بلغت ما بلغت إلا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم

ما لا يُحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة ممن لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لم تقووا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقتلكم ، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرا، وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقتلكم وقلة ما بأيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ، ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونها وتتصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به .

فقال عبادة : يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم ؛ فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ، ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه ، إن كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم ، وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند الله إذا قدمنا عليه ، وإن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا من رضوانه وجنته ، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك ، وإنا منكم حينئذ على إحدى الحسنيين : إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ البقرة : 249 . وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة وألا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده وإنما همنا ما أماننا ¹.

¹ - انظر : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة / جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي ج 1 / ص 10 - 16 / طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة .

5- العهدة العمرية :

ومن أعظم الشواهد التاريخية على ما كان من لقاء المسلمين مع النصارى، والحفاظ على ما لهم: ما يعرف بالعهدة العمرية؛ والتي تصالح عليها عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أهل إيلياء ، وهذا نص العهدة العمرية : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمتها وبريئتها، وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص — أي اللصوص — فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم؛ فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان؛ فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين؛ إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمر بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان؛ وكتب وحضر سنة خمس عشرة .¹

¹ - انظر : تاريخ الطبري / مرجع سابق / ج 2 / ص 449 وما بعدها .

ثالث عشر: النصارى في الحكم الإسلامي

لم تكن التعاليم التي جاء بها الإسلام في معاملة النصارى من أكل طعامهم، ومناكحة نسائهم، والإحسان في مجادلتهم، وحسن معاملتهم، لم يكن هذا كله مجرد أقوال يتغنى بها المسلمون، إنما كانت هذه الأقوال واقعة في دائرة التنفيذ، وداخلة في حيز التطبيق .

فهذا عمر رضي الله عنه يسأل القادمين عليه من الأقاليم عن أهل الذمة¹ فيقولون: ما نعلم إلا وفاء .

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودمائهم كدمائنا .

ويكتب علي رضي الله عنه لبعض ولاته فيقول : إذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاء ولا صيفاً، ولا رزقاً يأكلونه، ولا دابة يعملون عليها، ولا تضربن أحداً منهم سوطاً واحداً في درهم، ولا تقمه على رجله في درهم.

وقد روى أبو يوسف في الخراج: أن أبا عبيدة رضي الله عنه لما انسحب من حمص بعد أن فرض عليها الجزية إلى اليرموك بكى النصارى في حمص وقالوا : يا معشر المسلمين ! أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا

¹ - كلمة الذمة : تعني الضمان والعهد والأمان وإنما سموا بذلك لأن لهم عهد الله وعهد رسوله وعهد جماعة من المسلمين فهذه الذمة تعطى لغير المسلمين ما يشبه في عصرنا هذا بالجنسية وهذا ما عبر عنه الشهيد عبد القادر عودة والدكتور عبد الكريم زيدان بأنهم " حاملو الجنسية الإسلامية " . انظر : غير المسلمين في المجتمع الإسلامي/ ص 7 / مرجع سابق .

على ديننا، أنتم أوفى لنا، وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم — أي الروم — غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا.

وجاء في فتوح البلدان للبلاذري : أن الأوزاعي كتب إلى صالح بن علي بن عبد الله العباسي لما قتل مقاتلة لبنان، وأجلى بعضهم لما خرجوا على الخليفة : وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ، ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم ؟ وحكم الله تعالى : ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ النجم: 31 ، وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله ﷺ فإنه قال : " من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حججه " ¹.

ويكتب عمر رضي الله عنه لأبي عبيدة رضي الله عنه : امنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحلها. ويكتب في عهده لأهل إيلياء — القدس — : هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين لأهل إيلياء من الأمان :

1. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم .
2. أعطاهم أماناً لكنائسهم وصلبانهم وسائر ملتها .
3. لا تسكن كنائسهم ولا شيء من أموالهم .
4. لا يكرهون على دينهم .
5. لا يضار أحد منهم .

¹ - رواه أبو داود في الخراج والإمارة (3052) ، وذكره الألباني في صحيح الجامع رقم (2655).

ويعد الفاروق عمر رضي الله عنه من أعظم خلفاء الإسلام تأدية لحقوق أهل الكتاب بمن فيهم النصارى، فقد روى أبو يوسف في كتاب الخراج : أن عمر مر على قوم قد أقيموا في الشمس في بعض أرض الشام. فقال : ما شأن هؤلاء ؟ فقيل له : إنهم أقيموا في الجزية¹ ! فكره ذلك. وقال : هم وما يتعذرون به قالوا : يقولون : لا نجد فقال : دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون، ثم أمر بهم فخلى سبيلهم .

ولعل قصة القبطي مع ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه من أروع ما قصه التاريخ على أذهان البشر ، يقول الشهيد سيد قطب : وحادثة ابن القبطي الذي سابق ابن عمرو بن العاص فاتح مصر وواليتها فضربه ابن عمرو، فشكا أبوه إلى عمر بن الخطاب، فأقصه منه في موسم الحج وعلى ملا من الناس ... حادثة معروفة .

وقد اعتاد الكتاب أن يقفوا فيها عند عدل عمر ولكن الحادثة أوسع دلالة على ذلك التيار التحرري الذي أطلقه الإسلام في ضمائر الناس وفي حياتهم .

فمصر إذ ذاك بلد مفتوح . حديث عهد بالفتح والإسلام . وهذا القبطي قبطي لم يزل على دينه، فرداً من جماهير البلد المفتوح وعمرو بن العاص هو فاتح هذه الأقاليم وأول أمير عليه من قبل الإسلام، وحكام هذا

¹ - الجزية : هي المال المقدر المأخوذ من الذمي فهي ضريبة على الرؤوس يلتزم الذمي بأدائها إلى الدولة الإسلامية في معادها المعين متى توافرت شروط وجوبها ولم يوجد ما يسقطها . انظر : أحكام الذميين والمستأمنين / مرجع سابق/ ص 138 .

الإقليم قبل الفتح الإسلامي هم الرومان : أصحاب السياط التي تجلد ظهور شعوب المستعمرات ، ولعل ذلك القبطي كان ما يزال ظهره يحمل آثار سياط الرومان !

ولكن المد التحرري الذي أطلقه الإسلام في أنحاء الأرض، أنسى ذلك القبطي سياط الرومان وذلها، وأطلقه إنساناً حراً كريماً، يغضب لأن يضرب ابن الأمير ابنه بعد اشتراكهما في سباق وهذه أخرى، ثم تحمله هذه الغضبة لكرامة ابنه الجريحة على أن يركب من مصر إلى المدينة، لا طيارة ولا سيارة ولا باخرة ولا قطاراً، ولكن جملاً يخب به الأشهر الطوال كل ذلك ليشكو إلى الخليفة، الخليفة الذي حرره يوم فتح بلده تحت راية الإسلام والذي علمه الكرامة بعد أن نسيها تحت وقع سياط الرومان¹ ويذكر التاريخ لنا أيضاً صدق عمر رضي الله عنه في المعاملة ورفقه بالنصارى وأشباههم، فقد قدم أحد عمال ابن الخطاب عليه بأموال الجزية، فوجدها كثيرة فقال لعامله : إني لأظنكم قد أهلكتم الناس ؟ فقال : لا والله ما أخذنا إلا عفواً وصفوا فقال عمر رضي الله عنه : بلا سوط ولا نوط ؟ فقال : نعم ، فقال عمر رضي الله عنه : الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يدي ولا في سلطاني . ولما أصيب عمر بضربة أبي لؤلؤة المجوسي فلم يمنعه ذلك أن يوصي الخليفة من بعده — كائناً من كان — وهو على فراش الموت فيقول: أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً، أن يوفى بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفهم فوق طاقتهم².

¹ - انظر : هذا الدين / سيد قطب / ط دار الشروق 1978م / ص 82 .

² - رواه البخاري في الجائز (1392) .

إن الجزية إنما قامت مقام العمل العسكري للمسلم في وطنه، وحماية لأهل الكتاب، فإن لم يكن من المسلمين حماية ردت على النصارى وأشباههم جزيته وأموالهم، وهذا ما كان من أبي عبيدة رضي الله عنه حين علم بتجمع جحافل الروم؛ فأمر نوابه برد الجزية. روى أبو يوسف في الخراج أن أبا عبيدة قال : إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشروط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم.

وهذا عمرو بن العاص رضي الله عنه يكتب لأهل مصر معاهدة فينص فيها على ما يلي : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على : أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم ، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ¹

وهذا خالد بن الوليد حين دخل دمشق كتب كتاباً لأهلها جاء فيه: أن قد أمنتهم على دمائهم وأموالهم وكنائسهم.²

ويروي لنا الإمام مسلم في صحيحه أن هشام بن حكيم بن حزام مرّ على أناس من الأنباط بالشام. قد أقيموا في الشمس. فقال : ما شأنهم ؟ قالوا : حبسوا في الجزية. فقال هشام : أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

¹ - انظر : تاريخ الطبري / مرجع سابق / ج 2 / ص 513 ، 514 .

² - انظر : الأموال/حميد بن زنجويه/تحقيق: د: شاكِر ذيب فياض/ج2/ص 473/ ط مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات/ ط الأولى 1986م، و انظر : الأموال/أبي عبيد القاسم بن سلام/ تحقيق: د: محمد عمارة/ ص 295/ ط دار الشروق/ ط الأولى 1989م.

يقول : " إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا". وزاد في حديث جرير :
قال : وأميرهم يومئذ عمير بن سعد على فلسطين فدخل عليه فحدثه. فأمر بهم
فخلوا .¹

وهذا الحارث بن أبي ربيعة لما ماتت أمه — وكانت نصرانية — شيّعها
أصحاب رسول الله ﷺ .²

وهذا عمر بن عبد العزيز يعهد إلى بعض عماله فيقول له : عليك بتقوى
الله في كل حال ينزل بك ، فإن تقوى الله أفضل العدة ، وأبلغ المكيدة ، وأقوى
القوة إلى أن يقول : ونح منزلك عن قرى أهل الصلح والذمة ، ولا
يدخلها أحد من أصحابك لسوقهم وحاجتهم إلا من تثق به وتأمنه على نفسه
ودينه ، فلا يصيبوا فيها ظلماً ولا يتزودوا منها إثماً ، ولا يرزؤن أحداً من
أهلها شيئاً إلا بحق ؛ فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا
بالصبر عليها .³

ولله در عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى فإنه كتب إلى حيان عامله
على مصر ، فكتب إليه حيان : أما بعد يا أمير المؤمنين فإنه إن دام هذا
الأمر في مصر أسلمت الذمة ، وبطل ما يؤخذ منهم . فأرسل إليه رسولاً
وقال له : اضرب حيان على رأسه ثلاثين سوطاً أدبا على قوله ، وقل له :
من دخل في دين الإسلام فضع عنه الجزية ، فوددت لو أسلموا كلهم فإن الله
بعث محمداً ﷺ داعياً لا جابياً .⁴

¹ - رواه مسلم في البر والصلة رقم (2613) عن هشام بن حكيم.

² - انظر: المحلى / ابن حزم / ج 5 / ص 117 / ط دار الأفاق الجديدة بيروت/ بدون.

³ - انظر حلية الأولياء/ أبو نعيم/ ج 5 / ص 303 ، 304 / ط دار الكتاب العربي بيروت/ ط
الرابعة 1405 هـ.

⁴ - انظر : أحكام أهل الذمة / ج 1 / ص 213 / ط دار العلم للملايين / ط الأولى 1961 م ..

ولم يكن هذا الأمر قاصراً على العهد الأول فقط بل يذكر لنا التاريخ موقفاً لأحمد بن طولون وهو: أن ابن طولون أرسل أحد قواده ليجمع الخراج¹ فاغتصب القائد من راهب خمسمائة دينار إذ قيل: إن هذا الراهب يملك كنزاً. فبكى الراهب وحزن فأشير عليه بأن يذهب إلى القسطنطينية ويكتب قصته ويقدمها لابن طولون فإنه "أمير عادل منصف" ففعل الراهب ذلك. فرآه حاجب ابن طولون وكان الحاجب صديقاً للقائد الظالم. فسأل الحاجب الراهب عن حاجته فقص عليه القصة فخشى الحاجب من تأديب ابن طولون لصاحبه، فدفع للراهب خمسمائة دينار بدلاً عن القائد واسترضاه فرضي وعاد إلى بلده.

وعلم بالحادثة بعض الناس فأبلغوها إلى ابن طولون، فأحضر القائد والحاجب والراهب، ثم قال للراهب: كان سبيلك — وملك — أن تدعي عليه — أي على القائد — بثلاثة آلاف دينار فأخذها لك منه وأجعل ذلك تأديباً له ولغيره. ثم قال الحاجب: والله إنها مكرمة سارعت إليها وجميل رغبت فيه وقد قال الله عز وجل: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ الرحمن: 60. قال ابن طولون: احذر أن تعاود مثلها، ولا تستبدن بأمر تأتيه دون أن تعرفنا به. فقال الحاجب: أقلني أيها الأمير أقالك الله فوالله لا أعود لمثلها أبداً. قال: فانصرف إلى موضعك! ثم التفت ابن طولون إلى القائد وقال له: أفي رزقك تقصير عن مؤنتك؟ قال: لا. قال: فأخر عنك استحقاقك يضطرك إلى ما أتيت به؟ قال: لا.

¹ - هو ضريبة مالية على الأراضي وهذه تسمى الأراضي الخراجية. انظر: أحكام الذميين والمستأمنين / ص 158.

قال : فبأي حال استحللت أن تأخذ من هذا البائس الضعيف ما تقطع به قلبه . وتبكي عينه وتفرقه وأهله ؟ ألك حاجة أوجبت ذلك عليك أو ضرورة دعتك إليه ؟ المطبق ¹ ! وأمر بسجنه! وهكذا حبس القائد الكبير في قبضي مظلوم ! ².

¹ - المطبق : اسم لسجن ابن طولون .

² - انظر : التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام / الشيخ محمد الغزالي / ط : دار البيان الكويت ص 202 وما بعدها .

رابع عشر: النصارى في بلاط الخلفاء

أدرك النصارى كما أدرك غيرهم خلق التسامح الذي عرف به الإسلام، وقد كان هذا الأمر حافزاً للنصارى ولغيرهم ليتقلدوا زمام الأمور في كثير من الأوقات، حتى أنه وصل بهم الأمر وباليهود أيضاً: أن يستغلوا سماحة الإسلام، وسداجة أهله أحياناً فيذلوا رعايا الدولة الإسلامية التي احتضنتهم في صدرها، وضمتهم في حناياها، وأولتهم عطفها وحنانها حتى قال الشاعر :

غاية آمالهم وقد ملكوا
ومنهم المستشار والملك
تهودوا قد تهود الفلك

يهود هذا الزمان قد بلغوا
المجد فيهم والمال عندهم
يا أهل مصر إن نصحت لكم

وتشهد كتب التاريخ أنه معاوية رضي الله عنه اتخذ كاتباً نصرانياً اسمه سرجون ، وأن أبا عبيدة رضي الله عنه اتخذ أيضاً كاتباً نصرانياً ولكن عمر رضي الله عنه نهى عن ذلك .

وقد استخدم معاوية رضي الله عنه النصارى في مصالح الدولة، وقرّب النابهين منهم، وعهد بالإدارة المالية إلى أسرة نصرانية، ظلت تتوارث فيما بينها تلك الإدارة وهي أسرة سرجون .

وأبقى في دواوين الشام الكتاب من النصارى من أهل البلاد لكثرتهم يكتبون باليونانية، كما اختار معاوية الطبيب النصراني " ابن أثال "

ليكون طبيبه الخاص، وكتب " ابن بطريق " وهو رجل من أهل فلسطين
لسليمان بن عبد الملك، وكتب " تاذري بن أسطين " لهشام بن عبد الملك.

وبرز من النصارى شعراء فحول فقربهم الخلفاء، ومنهم: الأخطل
التغلبى، والذي يعد شاعر بني أمية. قال عنه عبد الملك بن مروان : إن
لكل قوم شاعراً، وإن شاعر بني أمية الأخطل . ومنهم أيضاً " أعشى بن
ربيعة " و " مرقص الطائي " و " نابغة بن شيبان " .

ولقد اعترف المؤرخون من غير المسلمين بذلك يقول " أرنولد " : لا
يسعنا إلا الاعتراف بأن تاريخ النصارى في ظل الحكم الإسلامي يمتاز
ببعده بعداً تاماً عن الاضطهاد الديني .

ويقول "ول ديورانت" : لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزرذشتيون
واليهود والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من
التسامح، لا تجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا
أحراراً في ممارسة شعائرهم الدينية، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم .

وذكر " السير توماس أرنولد " أسماء بعض الوزراء والولاة
المسيحيين في الدويلات الإسلامية، وأسماء الأطباء المقربين من الخلفاء،
ثم قال: إن المسيحيين أحرزوا ثروات ، وتمتعوا بنجاح عظيم في عصور
الإسلام الأولى بفضل ما كفل الإسلام لهم من حرية الحياة والملك
والعقيدة، حتى كان منهم أصحاب النفوذ العظيم في قصور الخلفاء¹.

¹ - نقلاً عن : السياسة الأموية تجاه أهل الذمة ومؤسساتهم في بلاد الشام / د : مروان القدومي
/ بحث في مجلة الدعوة الإسلامية الليبية / العدد الخامس .

ويذكر الدكتور القرضاوي حفظه الله : أنه يجوز لأهل الذمة تولى وظائف الدولة كالمسلمين، إلا ما غلب عليه الصبغة الدينية كالإمامة ، ورئاسة الدولة، والقيادة في الجيش، والقضاء بين المسلمين، والولاية على الصدقات ونحو ذلك .

وماعدا ذلك من وظائف الدولة يجوز إسناده إلى أهل الذمة؛ إذا تحققت فيهم الشروط التي لا بد منها: من الكفاية، والأمانة، والإخلاص للدولة .¹

وقد صرح الإمام الفقيه الماوردي في كتابه " الأحكام السلطانية " بجواز تقليد الذمي " وزارة التنفيذ "، ووزير التنفيذ هو الذي يبلغ أوامر الإمام، وهذا بخلاف وزارة التفويض .²

وقد تمرغ عدد غير قليل منهم في بلاط الخلفاء، ويذكر الدكتور الخربوطلي في كتابه أهل الذمة ما يلي :

اشتهر من بين أهل الذمة في العصر العباسي كثير من العظماء مثل " جرجس بن نجتيشوع " طبيب الخليفة العباسي " أبي جعفر المنصور"، وقد وثق فيه الخليفة وأكرمه، ومن هؤلاء " جبرائيل بن نختيشوع " طبيب " هارون الرشيد " الذي قال الرشيد عنه : كل من كانت له حاجة إلي فليخاطب بها جبريل، لأنني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني . وكان مرتب الطبيب عشرة آلاف درهم سنوياً، ويصله كل سنة بعشرين ألفاً .

¹ - انظر : غير المسلمين في المجتمع الإسلامي / مرجع سابق / ص 23 24 بتصرف .

² - نقلاً عن غير المسلمين في المجتمع الإسلامي / مرجع سابق / ص 33 .

وأشاد ترتون بتسامح المسلمين فقال : والكتاب المسلمون كريمون في تقدير فضائل هؤلاء ممن على غير ملتهم، حتى يُسَمون " حنين ابن اسحق " برأس أطباء عصره، و" هبة الله بن تلميذ " بأبو قراط عصره وجالينوس دهره .

وكان " نختيشوع بن جبرائيل " ينعم بعطف الخليفة المتوكل حتى إنه كاد يضاهيه في ملابسه، وفي حسن الحال، وكثرة المال، وكمال المروءة، ومبارته في الطيب والجواري والعبيد .

ولما مرض " سلمويه " بعث المعتصم ابنه لزيارته، ولما مات أمر بأن تحضر جنازته إلى القصر، وأن يصلى عليه بالشموع والبخور جرياً على عادة النصارى، وامتنع المعتصم يوم موته عن أكل الطعام .

أما " يوحنا بن ماسويه " فقد خدم الخلفاء العباسيين منذ " الرشيد " إلى " المتوكل "، وكان لا يغيب قط عن طعامهم، فكانوا لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم إلا بحضرته، ومن ثم لم يكن هناك أدنى كلفة بينه وبين الخليفة المتوكل، فكان الخليفة يداعبه في رفق ولين.¹

وقد ذكر صاحب كتاب " عيون الأنباء في طبقات الأطباء " عدداً من أهل الذمة الذين عاشوا في ظل الدولة الإسلامية نذكر منهم :

• في العهد الراشدي :

أرسل معاوية طبيباً نصرانياً من الشام ليداوي عثمان من مرض أصابه .

¹ - انظر : غير المسلمين في المجتمع الإسلامي / مرجع سابق / ص 57 58 .

• في الخلافة الأموية :

1— كان لمعاوية طبيبان نصرانيان :

الأول : ابن أثال وكان خبيراً بالسموم .

الثاني : أبو الحكم الدمشقي وكان عالماً بأنواع العلاج والأدوية والطب .

2— حكم الدمشقي وهو ابن أبي الحكم السابق وكان من أطباء الدولة الأموية .

3— عيسى بن حكم الدمشقي وقد عمر حتى جاوز المئة .

4— تياذدق وكان الطبيب الخاص للحجاج بن يوسف الثقفي .

5— عبد الملك بن أبجر الكناني وكان طبيباً لعمر بن عبد العزيز عندما كان أبوه والياً على مصر وقد أقنعه عمر بالإسلام فأسلم .

• في الخلافة العباسية :

اشتهرت عائلة " نجتيشوع " بالطب وبرز منهم عدد من الأطباء في الخلافة العباسية ومنهم :

1— " جورجوس بن جبرائيل بن نجتيشوع " وقد استدعاه المنصور فداوى المنصور من مرض أصاب معدته، فجعله طبيباً له ولأسرته، وكان المنصور يقول له : اتق الله وأسلم أضمن لك الجنة . فلم يُسلم .

2— نجتيشوع بن جورجوس . وقد خلف أباه في الطب، وجعله هارون الرشيد طبيبه الخاص .

3- يوحنا بن نجتيشوع وكان طبيباً للخليفة العباسي الموفق بالله .

4- نجتيشوع بن يوحنا وكان طبيباً خاصاً للراضي بن المقتدر .

كما اشتهرت كذلك عائلة " ماسويه " بعد عائلة " نجتيشوع " وكان منهم :

1- ماسويه الخوري .

2- يوحنا بن ماسويه وكان من المقربين من الخليفة الواثق .

3- عيسى أبو قریش النصراني¹.

¹ - انظر : عيون الأنباء في طبقات الأطباء / ابن أبي أصيبعة / ط دار مكتبة الحياة بيروت / ص 183 وما بعدها.

خامس عش : مواقف خالدة لعلماء الإسلام وقضاة

وقد سجل التاريخ لنا مواقف رائعة تكتب لعلماء الإسلام حيث وقفوا أمام الأمراء والحكام لإنصاف النصارى ونصرتهم . ومن هذه المواقف :

1 - شريح القاضي وسارق درع علي بن أبي طالب :

ذكر ابن كثير في " البداية والنهاية : عن الشعبي قال : وجد علي بن أبي طالب درعه عند رجل نصراني فأقبل إلى شريح يخاصمه . قال : فجاء علي حتى جلس جنب شريح، وقال: يا شريح هذا الدرع درعي ولم أبع ولم أهب. فقال شريح للنصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال النصراني: ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب. فالتفت شريح إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين هل من بينة؟ فضحك علي وقال : أصاب شريح ما لي بينة . ففضى بها شريح للنصراني. قال: فأخذه النصراني ومشى خطا ثم رجع فقال: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء ؛ أمير المؤمنين يدفعني إلى قاضيه يقضى عليه، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين، فخرجت من بعيرك الأورق . فقال علي: أما إذ أسلمت فهي لك، وحمله على فرس¹.
إننا لا نملك أمام هذا المشهد إلا أن نقر بعظمة الإسلام ، وتواضع رجاله العظام، وجرأة قضاة العادلين ، وهذا ما حدا بهذا النصراني أن يسلم لما رأى من عظمة هذا الدين ، ووضوح مبادئه .

¹ - انظر : البداية والنهاية / مرجع سابق / ج 8 / ص 4 ، 5 .

2 - الإمام الأوزاعي وأهل لبنان :

ذكر صاحب " فتوح البلدان " قال : خرج بجبل لبنان قوم شكوا عامل خراج بعلبك ، فوجه صالح بن علي بن عبد الله بن عباس من قتل مقاتلتهم ، وأقر من بقي منهم على دينهم ، وردهم إلى قراهم وأجلى قوما من أهل لبنان ، فحدثني القاسم بن سلام أن محمد بن كثير حدثه أن الأوزاعي كتب إلى صالح رسالة طويلة حفظ منها : وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئا لمن خرج على خروجه ، ممن قتلت بعضهم ، ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت ، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم ؟ وحكم الله تعالى : (أن لا تزر وازرة وزر أخرى) وهو أحق ما وقف عنده واقتدي به ، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله ﷺ فإنه قال : " من ظلم معاهدا وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه " ¹ ، ثم ذكر كلاما . ²

فانظر إلى هذا الموقف الرائع الذي وقفه أحد فقهاء الإسلام وهو الإمام الأوزاعي رحمه الله ، وكيف منع والي المسلمين من التماذي في هذا الظلم الذي وقع على بعض النصاري من أهل الذمة ، الذين لم يكن لهم شيء في الخروج على عامل الوالي ؟ وكيف أوقفه عند حده وذكره بأحكام الشريعة ونصوصها ، حتى رجع عن ظلمه .

¹ - رواه أبو داود في الخراج والإمارة (3052) ، وذكره الألباني في صحيح الجامع (2655).

² - انظر : فتوح البلدان / البلاذري / ط دار الكتب العلمية بيروت / ط 1403 هـ / ص 166 ، 167 .

3 - جميع بن حاضر الباجي وأهل سمرقند :

ذكر البلاذري في " فتوح البلدان " قال : قال أبو عبيدة : لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد عليه قوم من أهل سمرقند ، فرفعوا إليه : أن قتيبة بن مسلم دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر ، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا ، فنصب لهم " جميع بن حاضر الباجي " القاضي فحكم بإخراج المسلمين على أن ينادوهم على سواء ، فكره أهل مدينة سمرقند الحرب ، وأقروا المسلمين فأقاموا بين أظهرهم .¹

4 - إسماعيل بن إسحاق وعبدون بن صاعد النصراني :

قال القاضي عياض : حدث الدارقطني أن القاضي إسماعيل بن إسحاق - من أعلام المالكية ، وقاضي بغداد توفي سنة 282هـ - دخل عليه عبدون بن صاعد النصراني وزير الخليفة المعتضد بالله العباسي ، فقام له القاضي ورحّب به . فرأى إنكار الشهود لذلك ، فلما خرج الوزير قال القاضي إسماعيل : قد علمتُ إنكاركم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ الممتحنة : 8 ، وهذا الرجل يقضي حوائج المسلمين ، وهو سفير بيننا وبين المعتضد ... وهذا من البر².

¹ - انظر : فتوح البلدان / مرجع سابق / ص 411 .

² - انظر : ترتيب المدارك / القاضي عياض / ج 3 / ص 166 / ط دار الحياة ببيروت - تحقيق د. أحمد بكير محمود .

5 - شيخ الإسلام ابن تيمية وأسرى أهل الذمة :

ولعله لا أروع مما فعله شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - حين كلم "قطلوشاه" التتري في إطلاق الأسرى، فسمح له القائد التتري بإطلاق أسرى المسلمين، وأبى أن يسمح له بإطلاق أهل الذمة، فما كان من شيخ الإسلام إلا أن قال : لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسرى من اليهود والنصارى فهم أهل ذمتنا ولا ندع أسيراً لا من أهل الذمة، ولا من أهل الملة ، فلما رأى إصراره وتشدده أطلقهم له ¹.

فانظر هنا أيضاً إلى تشدد ابن تيمية، وحرصه على سلامة أهل الذمة، وحفظ حياتهم، وإصراره على فكاكهم، وعدم التفريق بين أسير وآخر حتى ولو اختلفت الديانة.

6 - الإمام القرافي :

وأختم هنا بكلمة رائعة للإمام شهاب الدين القرافي وهو يشرح كلمة "البر" الواردة في سورة الممتحنة ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الممتحنة: 8 ، فقال رحمه الله : الرفق بضعيفهم، وسد خلّة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وكساء عاريهم، ولين القول لهم - على سبيل اللطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة - واحتمال إذايتهم في الجوار - مع القدرة على إزالته - لطفاً منا بهم، لا خوفاً ولا طمعاً، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم، في دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم، إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم، وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانون على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم إلى جميع حقوقهم... الخ ².

¹ - انظر: شرح السير الكبير/ ج 1 / ص 108 وما بعدها.

² - انظر: الفروق/ القرافي / ج3 ص 15 دار المعرفة بيروت/ بدون.

سادس عشر: ولأقباط مصر وصايا خاصة

وقد كان لأقباط مصر نصيب وافر من وصايا المصطفى ﷺ حتى رأينا الإمام مسلماً يُبوب لذلك في صحيح ، وجعل باباً عنوانه: باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، ومن مجمل الأحاديث التي جاءت في الكتب الحديث أذكر ما يلي:

1 — عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته فقال : " الله الله في قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة وأعواناً في سبيل الله " ¹.

2 — عن أبي عبد الرحمن الحبلي أن رسول الله ﷺ قال: " فاستوصوا بهم خيراً، فإنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله " ² يعني قبط مصر .

3 — عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً " ³ .

4 — عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم دماً ورحماً " ⁴.

¹ - رواه الطبراني وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (3113) .

² - رواه ابن حبان وأبو يعلى، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح (64 / 10).

³ - رواه مسلم في فضائل الصحابة رقم (2543) عن أبي ذر.

⁴ - رواه الطبراني وذكره الحافظ في مجمع الزوائد وقال رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح (63 / 10) .

سابع عشر: هل النصارى إخوان للمسلمين؟

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا، أمر يتعلق باتباع هذه الديانة (النصرانية) ، فهؤلاء هل يجوز لنا أن نعتبرهم إخوانا لنا؟

وأود هنا أن أذكر كلاما رائعا للشيخ القرضاوي وهو يؤكد من خلال الأدلة: أن هؤلاء القوم إخوان لنا، وليس هناك مانع شرعي من ذلك، يقول الشيخ: وهذا تعبير صحيح ولا غبار عليه ، فالأخوة أنواع ومستويات ، أعلاها بلا ريب : " الأخوة الدينية " التي تقوم على العقيدة الواحدة ، وهي التي جاء فيها قول الله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ الحجرات 10 ، وهي التي أمتن الله بها على عباده فقال : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ آل عمران: 103 . وقال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ {62} وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {63} ﴾ الأنفال: 62 — 63 .

وقال ﷺ : " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه " .¹

ولكن هناك أنواعاً أخرى غير هذه الأخوة ودون هذه الأخوة ، ولكنها موجودة في الحياة ولها حقوقها وآثارها .

¹ - رواه مسلم في البر والصلة رقم (2580) .

ومن هذه "الأخوة القومية" التي تقوم على رابطة العرق الواحد أو الجنس الواحد، مثل رابطة "العروبة" بين العرب على اختلاف أديانهم .
وهناك " الرابطة الوطنية " التي تقوم على أساس الوطن الواحد والإقليم الواحد ، مثل رابطة المصريين في مصر ، والسوريين في سوريا ، والعراقيين في العراق ، وهكذا .
وهناك " الأخوة الإنسانية " العامة ، التي تربط البشر بعضهم ببعض باعتبار الأدمية المشتركة .

وأنا حين قلت عن المسيحيين العرب الذين يشاركوننا في الانتماء إلى العروبة، أو المصريين الذين يعاشوننا في وطن واحد هو وطننا ووطنهم: إنهم إخوان لنا ، لم أقصد أنهم إخوان لنا في الدين ، فديننا قطعاً مختلف . ولكن قصدت إنهم إخوان لنا في الانتماء القومي أو الانتماء الوطني ، وإطلاق الأخوة بهذا المعنى جائز ومشروع .

وهذا الإطلاق له أصل من القرآن الكريم ، هو الذي دعاني أن أقول ذلك ، منذ سنين ، وقد كنت قبل ذلك أتردد في إطلاقه .

هذا الأصل هو أن كتاب الله تعالى وصف أنبياء الله المرسلين إلى أقوامهم بأنهم " إخوان لهم " مع أنهم كفروا بهم وكذبوهم وعصوهم .

نقرأ في هذا في سورة الشعراء قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ {123} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ {124} ﴾ الشعراء 123 — 124

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ {160} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ {161} ﴾ الشعراء 161 .

وبهذا يتبين لنا أن القرآن الكريم أقر (الأخوة غير الدينية) أي الأخوة المبنية على وحدة القوم، ومثلها القائمة على وحدة الوطن. فالأخوة الدينية أخص، وهذه أعم، ولا تنافي بين الخاص والعام.

بل أقول: هناك أخوة أعم من هذه كلها، وهي الأخوة البشرية العامة، المؤسسة على أن جميع البشر عباد الله تعالى، وأبناء لآدم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد".¹

وقد روى أحمد وأبو داود عن زيد بن أرقم، أن النبي ﷺ كان يقول دبر كل صلاة: "اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك. اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك. اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة".²

فهذه الأخوة التي تضمنتها الشهادة الثالثة، تشمل في ظاهرها كل العباد، عجماء وعرباء، بيضا وسوداء، أغنياء وفقراء، ملوكا وسوقة، مسلمين وغير مسلمين.³

¹ رواه أحمد في المسند (43289) عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

² - رواه أحمد في المسند (19293) عن زيد بن أرقم، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف، ورواه أبو داود (1508) والنسائي في الكبرى (9929).

³ - انظر: فتاوى معاصرة / ج 3 / ص 192 - 193.

ثامن عشر: هل النصارى كفار؟

وهذه قضية أخرى يكثر الكلام والجدل حولها ، وخصوصاً بعد ما ذكرناه من سماحة الإسلام مع هؤلاء القوم ، وكثيراً ما يتجراً الأديعاء ويتهمون من يقول بكفر النصارى - وكذلك اليهود - بالتطرف والإرهاب ، ولكن ما العجب في ذلك إن كانوا هم ينظرون إلينا بنفس المنظار ؟ إننا من منظورهم كفار و (أولاد كفار) بيد أننا إن كنا ننظر إليهم كما ينظرون إلينا ، فإننا لا ننظر إلى أولادهم بهذا المنظار؛ ما لم يبلغوا ويختاروا لأنفسهم ما اختاره لهم آبائهم .

و لقد رد العلامة القرضاوي على هذه الشبهة فكتب تحت عنوان (لهذا نكفر اليهود والنصارى) يقول : فاليهود والنصارى كفار في اعتقاد المسلمين؛ لأنهم لم يؤمنوا برسالة محمد، الذي أرسل إلى الناس كافة، وإليهم خاصة، كما جاء في الآيات الصريحة البينة ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يَبِينُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرِّسَالِ﴾ المائدة: 19 ، وقد آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، فهم بنص القرآن الصريح: ﴿هُمْ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ النساء: 151.

وهم لم يكتفوا بالكفر برسالة محمد، والإعراض عنها، بل كادوا له ومكروا به، وصدوا عن سبيله. كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ التوبة: 32.

واليهود والنصارى كفار؛ لأنهم قالوا على الله بغير علم، وشوّهوا حقيقة الألوهية في كتبهم، ووصفوا الله بما لا يليق بجلاله وكماله، ونسبوا إليه نقص البشر، وعجز البشر، وجهل البشر، وهذا ثابت في (أسفار التوراة) التي يؤمن بها اليهود والنصارى جميعاً، فكل ما يؤمن به اليهود في شأن الألوهية والنبوة يؤمن به النصارى، لأن التوراة المحرفة الموجودة الآن في أيديهم (كتاب مقدس) عند الطائفتين جميعاً.

ويزيد النصارى على اليهود ما انفردوا به في شأن المسيح، حيث اعتبروه إلهاً، أو ابن إله، أو واحداً من ثلاثة أقانيم تكون (الإله). وهذا قد قرر القرآن بوضوح بين، وبيان واضح: أنه كفر. كما قال تعالى في سورة المائدة، وهي من أواخر ما نزل من القرآن: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ في آيتين من السورة آية: 17، و آية: 72 ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ .

وفي سورة التوبة — وهي من أواخر ما نزل أيضاً — جاء قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31)﴾ التوبة: 30-31.¹

¹ - انظر : فتاوى معاصرة / الدكتور / القرضاوي / ج 3 / ص 169 / طبعة دار القلم الكويت / ط الثالثة 2001م ، وانظر : موقف الإسلام العقدي من كفر اليهود والنصارى / د / القرضاوي / ص 35 وما بعدها / ط مكتبة وهبة / ط الأولى 1999 م .

تاسع عشر: شهادة إنصاف

وأود هنا أن أذكر بعض كلمات الإنصاف التي عبّر بها بعض المؤرخين والكتاب من المسلمين، ومن غير المسلمين، والتي تدل على سماحة هذا الدين العظيم:

1 — ما كتبه السير توماس. و. أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام):

قال وهو يتحدث عن أحد القضايا الشائكة — التي يثيرها بعض المتحذلقين في القديم وفي الحديث — وهي قضية الجزية . فيقول : ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة. وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين. ولما قدم أهل الحيرة المال المتفق عليه، ذكروا صراحة أنهم دفعوا هذه الجزية على شريطة: "أن يمنعونا وأميرهم البغي".

كذلك حدث أن سجل خالد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة قوله: "فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا".

ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط، من تلك الحادثة التي وقعت في عهد الخليفة عمر. لما حشد الإمبراطور

هرقل جيشا ضخما لصد قوات المسلمين المحتلة، كان لزاما على المسلمين — نتيجة لما حدث — أن يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي أحدثت بهم. فلما علم بذلك أبو عبيدة قائد العرب كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم برد ما جُبي من الجزية من هذه المدن، وكتب إلى الناس يقول: "إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم". وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين، وقالوا: "ردكم الله علينا، ونصركم عليهم (أي على الروم) .. فلو كانوا هم، لم يردوا علينا شيئا، وأخذوا كل شيء بقي لنا".

وقد فرضت الجزية — كما ذكرنا — على القادرين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التي كانوا يطالبون بها لو كانوا مسلمين، ومن الواضح أن أي جماعة مسيحية كانت تُعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي. وكانت الحال على هذا النحو مع قبيلة (الجراجمة) وهي مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية، سالمت المسلمين وتعهدت أن تكون عوناً لهم، وأن تقاتل معهم في مغازيهم، على شريطة ألا تؤخذ بالجزية، وأن تعطى نصيبها من الغنائم.

ولما اندفعت الفتوح الإسلامية إلى شمال فارس سنة 22هـ، أبرم مثل هذا الحلف مع إحدى القبائل التي تقيم على حدود تلك البلاد، وأُعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية.

ونجد أمثلة شبيهة بهذه للإعفاء من الجزية في حالة المسيحيين الذين عملوا في الجيش أو الأسطول في ظل الحكم التركي. مثال ذلك ما عومل به أهل ميغاريا (Migaria)، وهم جماعة من مسيحي ألبانيا؛ الذين أعفوا من أداء هذه الضريبة على شريطة أن يقدموا جماعة من الرجال المسلحين لحراسة الدروب على جبال (cithaeron) و(Geraned) التي كانت تؤدي إلى خليج كورننته؛ وكان المسيحيون الذين استخدموا طلائع لمقدمة الفتح التركي، لإصلاح الطرق وإقامة الجسور، وقد أعفوا من أداء الخراج، ومنحوا هبات من الأرض المعفاة من جميع الضرائب.

وكذلك لم يدفع أهالي (Hydra) المسيحيون ضرائب مباشرة للسلطان، وإنما قدموا مقابلها فرقة من مائتين وخمسين من أشداء رجال الأسطول، كان ينفق عليهم من بيت المال في تلك الناحية.

وقد أعفي أيضا من الضريبة أهالي رومانيا الجنوبية الذين يطلقون عليهم (Armatioli)، وكانوا يؤلفون عنصرا هاما من عناصر القوة في الجيش التركي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ثم المرديون (Midrdites) وكان ذلك على شريطة أن يقدموا فرقة مسلحة في زمن الحرب.

وبتلك الروح ذاتها لم تقرر جزية الرؤوس على نصارى الإغريق الذين أشرفوا على القناطر التي أمدت القسطنطينية بماء الشرب، ولا على الذين كانوا في حراسة مستودعات البارود في تلك المدينة، نظرا إلى ما قدموه للدولة من خدمات.

ومن جهة أخرى أعفي الفلاحون المصريون من الخدمة العسكرية على الرغم من أنهم كانوا على الإسلام. وفرضت عليهم الجزية في نظير ذلك، كما فرضت على المسيحيين¹.

هذا ما سجله المؤرخ المنصف السير توماس أرنولد، وما حمل الرجل على ما ذهب إليه إلا ما رآه واضحا في صفحات التاريخ.

2 - ما ذكره "ول ديورانت" في كتابه "قصة الحضارة":

قال وهو يتحدث عن التسامح في عهد الخلافة الأموية: لقد كان أهل الذمة - المسيحيون، والزرادشتيون، واليهود، والصابئون - يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرا في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحرارا في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، ولم يُفرض عليهم أكثر من ارتداء زي ذي لون خاص²، وأداء ضريبة عن كل شخص تختلف باختلاف دخله، وتتراوح بين دينار وأربعة دنانير. ولم تكن هذه الضريبة تُفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح، ويُعفى منها الرهبان، والنساء، والذكور الذين دون البلوغ، والأرقاء، والشيوخ، والعجزة، والعمي، والشديدو الفقر، وكان الذميون يُعفون في نظير ذلك من الخدمة

¹ - انظر: الدعوة إلى الإسلام / الطبعة الثالثة / ط مكتبة النهضة / السير توماس. و. أرنولد / ترجمة: د: حسن إبراهيم حسن، وآخرون ص79-81.

² - ليس المقصود من الزي الخاص تحقير أهل الذمة، وإنما كان هذا الزي بمثابة إثبات الهوية، لأنه لم يكن هناك ما يميز المسلمين من أهل الذمة مما يعرف الآن بالهوية، أو بالبطاقة الشخصية.

العسكرية، أو إن شئت فقل: لا يُقبلون فيها، ولا تُفرض عليهم الزكاة البالغ قدرها 2.5% من الدخل السنوي ، وكان لهم على الحكومة أن تحميهم، ولم تكن تُقبل شهادتهم في المحاكم الإسلامية، ولكنهم كانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم وقضاتهم وقوانينهم¹.

3 - البطريك اغنطيوس الرابع هزيم:

قال البطريك اغنطيوس الرابع هزيم في بحثه المقدم ضمن كتاب "المسيحية عبر تاريخها في المشرق" والذي أعده عدد من الكُتاب النصارى: لم يعان المسيحيون في بلاد الشام الكثير من تبدل الأوضاع في السنوات العشر التي عقتب الفتح . فلم يلجأ الفاتحون إلى الشدة ليفرضوا على المغلوبين معتقداتهم الإسلامية بل لبثت سوريا بلداً " مسيحياً " فيها كنائس رائعة ذائعة الصيت على نحو كنيسة القيامة وكنيسة اللد والرّها، وحافظت على طابعها حتى نهاية الحقبة الأموية. وكان السواد الأعظم من سكان المدن مسيحياً .

وليس مستغرباً أن يشعر المسيحيون بالطمأنينة التي وفرت لهم إلا في بعض الحالات، حيث تأثروا بأحداث محلية الطابع . ومن الوقائع التي تستحق الذكر بناء الخليفة معاوية كنيسة الرّها الكبرى على نفقته بعد أن دمرها الزلزال وإتاحته لابنه يزيد أن يختلط بالمسيحيين ويتردد على رهبانهم. ويروي الأب لامنس، استناداً إلى ابن قتيبة، قصة لا تخلو من الدلالة على علاقة معاوية بالمسيحيين. فعندما طعن في السن أصابه

¹ - انظر: قصة الحضارة/ ول ديورانت/ ج 13/ ص 131.

الأرق وكان يفيق كل ليلة على أجراس الكاتدرائية المجاورة لقصره فلم يشأ أن يسكتها بالشدة بل اعتمد الحيلة واكتفى بذلك رغم عدم نجاحه. ولم يعمل على تحويلها مسجد ومثله فعل عبد الله بن مروان لاحقاً للأسباب السياسية ذاتها .

وقد تحالف معاوية مع القبائل المسيحية مثل بني كلب التي تنتمي إليها زوجته ميسون. ومال أعضاء أسرته إلى السلوك ذاته . وقضى ابنه يزيد صباه في عشرة أخواله المسيحيين وفي صحبة أتراب كالأخطل ومنصور بن سرجون (القديس يوحنا الدمشقي) وسمح بأن يتتلمذ ابنه خالد على يد الراهب ماريانس أو اسطفانس . ويخبرنا ابن العبر أنه أبقي، لاحقاً، مسيحيين حكماً على بعض المقاطعات كالرها التي حكمها طويلاً نسطاس بن أندراوس .

وكان قصر الخلفاء مفتوحاً للشعراء ومنهم عدد من المسيحيين كالأعشى والنابغة وبخاصة الأخطل الذي أباح لنفسه حرية كبيرة، بل مدهشة، في التصرف كما في الكلام.

استمر المسيحيون يمارسون شعائرهم الدينية ولا يكتمون معتقداتهم بل كانوا يجاهرون بها ويعلقون في أعناقهم صلباناً، كما ظل كُتّاب الدواوين المسيحيون، وحتى مطلع القرن الثاني للهجرة، يرسمون علامة الصليب على ظهر الوثائق الرسمية كما تشهد على ذلك مخطوطات البردي في مصر والمكتوبة باللغتين اليونانية والعربية، وكان المسلمون رؤساء هؤلاء الكُتّاب يثبتون ختمهم إلى جانب الصليب بدل أن ينهوهم عن ذلك.¹

¹ - انظر: المسيحية عبر تاريخها في المشرق/ تحرير كل من: حبيب بدر وسعاد سليم و جوزيف أبو نهرا /صادر عن المجلس كنائس الشرق الأوسط بيروت لبنان/ الطبعة الأولى 2001م/ ص 482، 483 بتصرف.

4- فرح فرزلي:

وقال فرح فرزلي في بحثه المقدم ضمن كتاب "المسيحية عبر تاريخها في المشرق" والذي أعده عدد من الكتّاب النصارى: أكد المؤرخون العرب والغربيون أن القدس فُتحت صلحا، وبحسب الإتفاقات الموقعة بين الأطراف، غادر الفرنج المدينة وكانوا قد باعوا ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم بأرخص الأثمان، فاشتراها التجار من أهل العسكر، واشتراها النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج، وطلب هؤلاء من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام في مساكنهم ويأخذ الجزية فأجابهم إلى ذلك، وهكذا ثبت الأمر في مركزهم في كاتدرائية مار يعقوب، وجعلهم يحتفظون بممتلكاتهم في بيت لحم، لأن العلاقات الأرمنية - الأيوبية كانت جيدة كما كان قد رسمها نور الدين سنة (1172م/ 568هـ).

وراعى صلاح الدين القبط والأحباش وثبتهم في أماكنهم لأن القبط كانوا من رعاياه والأحباش من جيرانه، ومنح القبط دير السلطان، ورد لهم كل الأماكن التي استولى عليها الفرنج . وكان بالقدس بعض نساء ملوك الروم ممن ترهبين وأقمن في المدينة ومعهن حشد من العبيد والجواري وخلق كثير، ولهن من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم، فطلب الأمان لأنفسهن ومنمعهن فأمنهن.¹

¹ - انظر: المسيحية عبر تاريخها في المشرق/ مرجع سابق/ ص 583.

5 - كلمات رائعة لبعض نصارى مصر:

وهذه كلمات رائعة رصينة لعدد من نصارى مصر يقرون فيها بروعة وعدالة الشريعة الإسلامية، ومن هؤلاء:

مكرم عبيد باشا : نحن مسلمون ووطناً، ونصارى ديناً، اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك، وللوطن أنصاراً، واللهم اجعلنا نحن نصارى لك، وللوطن مسلمين.¹

البابا شنودة: إن الأقباط في ظل حكم الشريعة الإسلامية يكونون أسعد حالاً وأكثر أمناً، ولقد كانوا كذلك في الماضي، حينما كان حكم الشريعة هو السائد ؛ نحن نتوق إلى أن نعيش في ظل: " لهم ما لنا وعليهم وما علينا".

إن مصر تجلب القوانين من الخارج حتى الآن، وتطبقها علينا، ونحن ليس عندنا ما في الإسلام من قوانين مفصلة، فكيف نرضى بالقوانين المطلوبة ولا نرضى بقوانين الإسلام؟²

الأبنا موسى - الأسقف العام - : نحن مصريون عرقاً، ولكن الثقافة الإسلامية هي السائدة الآن .. وأي قبطني يحمل في الكثير من حديثه تعبيرات إسلامية يتحدث بها ببساطة ودون شعور بأنها دخيلة، بل هي جزء من مكوناته .. ومصر دائماً دولة مسلمة ومتدينة، ولكن بدون تطرف.³

¹ - صحيفة الوفد القاهرية عدد 21 / 1 / 1993م.

² - الأهرام القاهرية عدد 3 / 6 / 1985م.

³ - نقلاً عن كتاب: الملل والنحل والعراق. هموم الأقليات في العالم العربي/ سعد الدين إبراهيم/ ط. 1990م/ ص 530.

الأبنا يوحنا قلتة: أنا مسلم ثقافة مائة في المائة .. أنا مسيحي ديناً، وعضو في الحضارة الإسلامية .. فكلنا مسلمون حضارة وثقافة، وإنه يُشرفني وأفتخر أنني مسيحي عربي أعيش في حضارة إسلامية، وفي بلد إسلامي، وأساهم وأبني مع جميع المواطنين، هذه الحضارة الرائعة.¹

غالي شكري: إن الحضارة الإسلامية هي الانتماء الأساسي لأقباط مصر ولكافة المواطنين .. فلقد ورثت كل ما سبقها من حضارات، وأصبحت هي الانتماء الأساس، والذي بدوره يصبح المواطن في ضياع مطلق .. إننا ننتمي -كعرب من مصر- إلى الإسلام الحضاري والثقافي وهذا الانتماء لا يتعارض مطلقاً مع العقيدة الدينية؛ لأن الإسلام وحد العرب، وكان عامل توحيد للشعوب والقبائل والمذاهب والعقائد.²

6 - السباعي رحمه الله ينقل عن كثير من المستشرقين:

وأختم هذه الشهادة بما نقله الأستاذ مصطفى السباعي عن هذا التسامح في كتابه الرائع "من روائع حضارتنا"، حيث كتب يقول: إن التسامح الديني في حضارتنا مما لا يعهد له مثيل في تاريخ العصور الماضية، وقد أجمع المؤرخون الغربيون ممن يحترمون الحق على هذا التسامح وأشادوا به.

¹ - نقلا عن: الإسلام والسياسة الرد على شبهات العلمانيين/ محمد عمارة/ طبعة دار الرشاد القاهرة/ ط 1997م/ ص 152.

² - نقلا عن كتاب: يا أقباط مصر انتبهوا/ محمد مورو / ط دار المختار الإسلامي/ ط 1998م/ ص 15.

يقول المستر "درايبر " الأمريكي المشهور: إن المسلمين الأوائل في زمن الخلفاء لم يقتصروا في أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الإحترام ، بل فوّضوا إليهم كثيرا من الأعمال الجسام، ورقّوهم إلى مناصب الدولة، حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا بن ماسويه، ولم يكن ينظر إلى البلد الذي عاش فيه العالم، ولا إلى الدين الذي ولد فيه، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة.

ويقول المؤرخ الشهير المعاصر " ولز " في صدر بحثه عن تعاليم الإسلام: (إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السّمة، ممكنة التنفيذ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي عما في أية جماعة أخرى سبقتها ...) إلى أن يقول عن الإسلام: (إنه مليء بروح الرفق والسماحة والأخوة).

ويقول السر " مارك سايس " في وصف الامبراطورية الإسلامية في عهد الرشيد: (وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمين على السواء يعملون في خدمة الحكومة).

ويقول " ترنون ": (لم يكن للدين دخل في معاملة الشعراء والمغنين).

ويقول " ليفي بروتستال " في كتابه أسبانيا الإسلامية في القرن

العاشر:

(إن كاتب الذم كثيراً ما كان نصرانياً أو يهودياً، والوظائف مما يقلده النصارى واليهود، وقد كانوا يتصرفون للدولة في الأعمال الإدارية والحربية، ومن اليهود من كانوا ينوبون عن الخليفة بالسفارات إلى دول أوروبا الغربية).

ويقول " رينو " في تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط: (إن المسلمين في مدن الأندلس كانوا يعاملون النصارى بالحسنى، كما أن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين، فيختون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير).

ويقول " أرنولد " وهو يتحدث عن المذاهب الدينية بين الطوائف المسيحية: (ولكن مبادئ التسامح الإسلامي حرّمت مثل هذه الأعمال التي تتطوي على الظلم، بل كان المسلمون على خلاف غيرهم، إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهداً في أن يعاملوا كل رعاياهم من غير المسلمين بالعدل والقسطاس، مثال ذلك: أنه بعد فتح مصر استغلّ اليعاقبة فرصة إقصاء السلطات البيزنطية ليسلبوا الأرثوذكس كنائسهم، ولكن المسلمين أعادوها أخيراً إلى أصحابها الشرعيين، بعد أن دلل الأرثوذكس على ملكهم لها) ... وإذا نظرنا إلى التسامح الذي على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي: ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة التصديق.

ونرى خير ما نختم به هذا البحث في التدليل على تسامحنا وتعصبهم، شهادة لحبر من أحبار النصرانية ليس بمتهم في تحيزه. لقد تحدث

بطريك أنطاكية ميخائيل الأكبر، وقد عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر— بعد أن خضعت الكنائس الشرقية للحكم الإسلامي خمسة قرون — عن تسامح المسلمين واضطهاد الروم للكنائس الشرقية: (وهذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرّد بالقوة والجبروت، والذي يدل دولة البشر كما يشاء فيؤتيها من يشاء ويرفع الوضع، لما رأى شرور الروم، الذين لجئوا إلى القوة، فنهبوا كنائسنا، وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا فينا العقاب في غير رحمة ولا شفقة: أرسل أبناء إسماعيل (العرب) من الجنوب (الجزيرة العربية) ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم. وفي الحق أننا إذا كنا في تحملنا شيئاً من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا وإعطائها لأهل خليقدونية، فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم. ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها- وفي ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حوران- مع ذلك لم يكن كسبا هينا أن نتخلص من قسوة الروم وإذا هم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام).

ألست ترى معي أن قول "غوستاف لوبون": إن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا ديناً سمحاً مثل دينهم. هو إنصاف للحق قبل أن يكون إنصافاً للمسلمين؟!¹

¹ - انظر : من روائع حضارتنا / د: مصطفى السباعي / 80 وما بعدها بتصرف.

المنم للعشرين : تسامح أض بأهله وأساء الآخرين فهمه

لم يكن هذا التسامح الذي تحدثنا عنه سابقاً وليد فكرة عابرة، أو مرحلة طارئة، أو في دولة معينة، ولكنه كان تعاليم دين، وأقوال رسول، وأعمال خلفاء راشدين، وأمراء مسلمين . وهذا ما أكدته المستشرق الألماني " آدم متز " حيث قال: لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام.¹

وهذا آخر وهو : المستشرق البريطاني " توماس أرنولد " يذكر قمة هذا التسامح فيقول : إنه من الحق أن نقول : إن غير المسلمين قد نعموا بوجه الإجمال في ظل الحكم الإسلامي؛ بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً في أوربة قبل الأزمنة الحديثة.²

ولكن يبدو أن بعض الشعائر والأحكام — التي دلت على التسامح ودعت إليه — تُفهم عند بعض الناس بغير مقصودها ، أو تطبق بغير مرادها فينحاز الناس في مثل هذه الأحكام إلى فريقين :

1— فريق يميل إلى الإفراط .

2— فريق يميل إلى التفريط .

وفي مقابل الفريق الأول الذي يميل إلى التفريط — تظهر أمور لم تكن في الحساب .

¹ - انظر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع عشر / مرجع سابق / ج 1 / ص 106 .

² - انظر: الدعوة إلى الإسلام / سير توماس أرنولد / ترجمة د إبراهيم حسن وآخرون / ص

ولنظهر الأمر إيضاحاً، والحقيقة تجلية وبرهاناً في الموضوع الذي بين أيدينا فنقول :

لقد أساء بعض الأمراء هذه المسامحة التي أمرت بها الشريعة الغراء فجعلوا بعض النصارى في وضع ليسوا أهلاً له، فجعلوا منهم الوزراء¹، وخران الأموال، والحجاب، وأصحاب الدواوين، والأعمال المهمة . ومن هؤلاء :

1- الوزير " عيسى بن نسطورس " الذي كان وزيراً لحاكم مصر العزيز " نزار بن معد " .

2- أبو الفتح بن أبي النجم النصراني .

3- أبو الفرج بن القف الطبيب الجراح تولى الوزارة في الدولة الفاطمية .

4- أبو الفرج صاعد بن هبة الله النصراني، كان وزيراً للخليفة الناصر العباسي.

5- بحر بن إسحاق القرطبي النصراني، تولى الوزارة لعبد الرحمن الناصر الثالث .

وقد أساء النصارى - وكذلك اليهود - ممن استوزروا في ظل الدولة الإسلامية ما أتيح لهم من الأعمال والإدارات، وكانت هذه الإساءة ظاهرة جلية في بعض الأحيان، وباطنة في أحيان أخرى، وقد صدق في هؤلاء قول الشاعر :

¹ - كلمة الوزير كانت تطلق قديماً على ما يعرف الآن برئيس الوزراء إذ لم يكن في الغالب للخليفة إلا وزير واحد وهذا الوزير يقوم بما يطلق عليه الآن وزارات التفويض .

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإذا أنت أكرمت اللئيم تمردا
وصدق فيهم قول العرب قديماً : (سمن كلبك يأكلك) .
وكانت هذه الإساءات على نوعين :

النوع الأول : استخدام وظائفهم وسلطانهم في ذل المسلمين .
النوع الثاني : التعاون مع أعداء المسلمين وموالاته الغزاة الماكرين .

النوع الأول : استخدام وظائفهم وسلطانهم في ذل المسلمين .

استغل بعض النصارى من ذوي النفوس المريضة ، والقلوب الخربة ، والطموحات الدنيئة سماحة الإسلام ، وتولية بعض الأمراء والخلفاء لهم بعض الأعمال الحساسة في دولة الإسلام؛ فعملوا على إذلال المسلمين ، وقد سجل لنا التاريخ بعض هذه المواقف ونذكر منها ما يلي :

1- قال ابن الأثير : في هذه السنة (531 هـ) في جمادى الأولى هرب تاج الدولة بهرام وزير الحافظ لدين الله العلوي صاحب مصر ، وكان قد استوزره بعد قتل ابنه حسن سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، وكان نصرانيا أرمنيا فتمكن في البلاد ، واستعمل الأرمن وعزل المسلمين ، وأساء السيرة فيهم ، وأهانهم هو والأرمن الذين ولاهم وطمعوا فيهم .¹

2 - ولّى العزيز " نزار بن معد " عيسى بن نسطورس " النصراني كتابته ، واستتاب بالشام يهوديا اسمه " منشا " فاعتز بهما

¹ - انظر : الكامل / محمد بن محمد الشيباني / ط دار الكتب العلمية بيروت / ط 1995 م . / ج 9 / ص 296 .

النصارى واليهود وآذوا المسلمين ، فعمد أهل مصر وكتبوا قصة وجعلوها في يد صورة عملوها من قراطيس فيها : بالذي أعز اليهود بمنشا ، والنصارى بعيسى بن نسطورس ، وأذل المسلمين بك إلا كشفت ظلامتي ، وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز والرقعة بيدها ، فلما رآها أمر بأخذها ، فلما قرأ ما فيها ورأى الصورة من قراطيس علم ما أريد بذلك فقبض عليهما ، وأخذ من عيسى ثلاثمائة ألف دينار ، ومن اليهودي شيئا كثيرا .

وكان العزيز " نزار بن معد " يحب العفو ويستعمله ، فمن حلمه أنه كان بمصر شاعر اسمه الحسن بن بشر الدمشقي ، وكان كثير الهجاء فهجا يعقوب بن كلس وزير العزيز ، وكاتب الإنشاء أبا نصر عبد الله الحسين القيرواني ، فقال :

قل لأبي نصر حاجب القصر	والمأتى لنقض ذا الأُمـر
انقض عرا الملك للوزير تفـر	منه بحسن الثناء والذـكـر
واعط أو امنع ولا تخف أحدا	فصاحب القصر ليس في القصر
وليس يدري ماذا يراد به	وهو إذا ما درى فما يدري

فشكاه ابن كلس إلى العزيز وأنشده الشعر ، فقال له : هذا شيء اشتركنا فيه في الهجاء ، فشاركني في العفو عنه ، ثم قال هذا الشاعر أيضا وعرض بالفضل القائد :

تنصر فالتنصر دين حـق	عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا	وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا	العزيز ابن وروح القدس فضل

فشكاه أيضا إلى العزيز فامتعض منه إلا أنه قال : اعف عنه ، فعفا عنه ، ثم دخل الوزير على العزيز فقال : لم يبق للعفو عن هذا معنى وفيه غض من السياسة ونقض لهيبة الملك ، فإنه قد ذكرك وذكرني وذكر ابن زبارج نديمك وسبك بقوله :

زبارجي نديم وكلسي وزير نعم على قدر الكلب يصلح الساجور¹
فغضب العزيز وأمر بالقبض عليه فقبض عليه لوقته ، ثم بدا للعزيز إطلاقه ، فأرسل إليه يستدعيه ، وكان للوزير عين في القصر فأخبره بذلك ، فأمر بقتله فقتل ، فلما وصل رسول العزيز في طلبه أراه رأسه مقطوعا ، فعاد إليه فأخبره فاغتم له.²

3 — لما حج أبو جعفر المنصور اجتمع جماعة من المسلمين إلى شبيب بن شيبه ، وسألوه مخاطبة المنصور أن يرفع عنهم المظالم ، ولا يمكن النصارى من ظلمهم وعسفهم في ضياعهم ، ويمنعهم من انتهاك حرماهم ، وتحريرهم ، لكونه أمرهم أن يقبضوا ما وجدوه لبني أمية ، قال شبيب : فطفت معه ، فشبك أصابعه على أصابعي ، فقلت : يا أمير المؤمنين أتأذن لي أن أكلمك بما في نفسي ؟ فقال : أنت وذاك . فقلت : إن الله لما قسم أقسامه بين خلقه لم يرض لك إلا بأعلاها وأسناها ، ولم يجعل فوقك في الدنيا أحداً ، فلا ترض لنفسك أن يكون فوقك في الآخرة أحد ، يا أمير المؤمنين : اتق الله فإنها وصية الله إليكم جاءت ، وعنكم قبلت ، وإليكم تؤدي ، وما دعاني إلى قلبي إلا محض النصيحة لك ،

¹ - الساجور : القلادة أو الخشبة التي توضع في عنق الكلب . انظر : لسان العرب / ج 4 / ص 347 .

² - انظر : الكامل / مرجع سابق / ج 7 / ص 477 .

والإشفاق عليك وعلى نعم الله عندك، اخفض جناحك إذا علا كعبك ،
وابسط معروفك إذا أغنى الله يديك . يا أمير المؤمنين إن دون أبوابك
نيرانا تأجج من الظلم والجور ، لا يعمل فيها بكتاب الله ولا سنة نبيه
محمد ﷺ ، يا أمير المؤمنين سلطت الذمة على المسلمين ظلموهم
وعسفوهم ، وأخذوا ضياعهم ، وغصبوهم أموالهم ، وجاروا عليهم ،
واتخذوك سلماً لشهواتهم ، وإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً يوم القيامة .
فقال المنصور : خذ خاتمي فابعث به إلى من تعرفه من المسلمين . وقال
: يا ربيع اكتب إلى الأعمال ، واصرف من بها من الذمة ، ومن أتاك به
شبيب فأعلمنا بمكانه لنوقع باستخدامه . فقال شبيب : يا أمير المؤمنين
إن المسلمين لا يأتونك وهؤلاء الكفرة في خدمتك ؛ إن أطاعوهم أغضبوا
الله ، وإن أغضبوهم أغروك بهم ، ولكن تولي في اليوم الواحد عدة فكلما
وليت رجلاً عزلت آخر .¹

4 — وأما المهدي فإن أهل الذمة في زمانه قويت شوكتهم ، فاجتمع
المسلمون إلى بعض الصالحين وسألوه أن يعرفه بذلك وينصحه ، وكان
له عادة في حضور مجلسه فاستدعي للحضور عند المهدي ، فامتنع فجاء
المهدي إلى منزله وسأله السبب في تأخره ، فقص عليه القصة ، وذكر
اجتماع الناس إلى بابه متظلمين من ظلم الذمة ثم أنشده :

بأبي وأمي ضاعت الأحلام	أم ضاعت الأذهان والأفهام ؟
من صد عن دين النبي محمد	أله بأمر المسلمين قيام ؟
إلا تكن أسيافهم مشهورة	فينا فتلك سيوفهم أقلام

¹ - انظر : أحكام أهل الذمة / مرجع سابق / ج 1 / ص 214 ، 215 .

ثم قال : يا أمير المؤمنين إنك تحملت أمانة هذه الأمة ، وقد عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، ثم سلمت الأمانة التي خصك الله بها إلى أهل الذمة دون المسلمين . يا أمير المؤمنين أما سمعت تفسير جدك لقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ الكهف: 49 : أن الصغيرة التبسم ، والكبيرة القهقهة ؟

فما ظنك بأموال المسلمين وأماناتهم وأسرارهم ؟ وقد نصحتك وهذه النصيحة حجة علي ما لم تصل إليك .

فولّى عمارة بن حمزة أعمال الأهواز ، وكور دجلة وكور فارس ، وقلد حماداً أعمال السواد ، وأمره أن ينزل إلى الأنبار وإلى جميع الأعمال ، ولا يترك أحداً من الذمة يكتب لأحد من العمال ، وإن علم أن أحداً من المسلمين استكتب أحداً من النصارى قطعت يده .¹

5 - وكان للمهدي على بعض ضياعه كاتب نصراني بالبصرة ، فظلم الناس في معاملته ، فتظلم المتظلمون إلى سوار بن عبدالله القاضي ، فأحضر وكلاء النصراني واستدعي بالبينة ، فشهدت على النصراني بظلم الناس وتعدّي مناهج الحق . ومضى النصراني فأخذ كتاب المهدي إلى القاضي سوار بالثبوت في أمره ، فجاء البصرة ومعه الكتاب وجماعة من حمقى النصارى ، وجاءوا إلى المسجد فوجدوا سواراً جالساً للحكم بين المسلمين ، فدخل المسجد وتجاوز الموضع الذي كان يجب الوقوف عنده ، فمنعه الخدم فلم يعبأ بهم وسبهم ، ودنا حتى جلس عن يمين

¹ - انظر : أحكام أهل الذمة / ابن القيم / ج 1 / ص 215 ، 216 .

سوار، ودفع له الكتاب ، فوضعه بين يديه ولم يقرأه . وقال : أأست نصرانياً ؟ فقال : بلى أصلح الله القاضي . فرفع رأسه وقال : جروا برجله فسحب إلى باب المسجد ، وأدبه تأديباً بالغاً وحلف ألا يبرح واقفاً إلى أن يوفي المسلمين حقوقهم . فقال له كاتبه : قد فعلت اليوم أمراً يخاف أن يكون له عاقبة . فقال : أعز أمر الله يعزك الله .¹

6 — وحج المتوكل فرئى رجل يطوف بالبيت ويدعو على المتوكل ، فأخذه الحرس وجاءوا به سريعاً فأمر بمعاقبته . فقال له : والله يا أمير المؤمنين ما قلت ما قلته إلا وقد أيقنت بالقتل فاسمع كلامي ، ومر بقتلي . فقال : قل . فقال : سأطلق لساني بما يرضي الله ورسوله ويغضبك يا أمير المؤمنين ، قد اكتتفت دولتك كتاباً من الذمة أحسنوا الاختيار لأنفسهم ، وأسأعوا الاختيار للمسلمين ، وابتاعوا دنياهم بآخرة أمير المؤمنين ، خفتهم ولم تخف الله، وأنت مسؤول عما اجترحوا ، وليسوا مسؤولين عما اجترحت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أخسر الناس صفقة يوم القيامة من أصلح دنيا غيره بفساد آخرته ، واذكر ليلة تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة ، وأول ليلة يخلو المرء في قبره بعمله . فبكى المتوكل إلى أن غشي عليه ، وطلب الرجل فلم يوجد .²

7 — وفي أيام الأمر بأمر الله امتدت أيدي النصارى ، وبسطوا أيديهم بالجناية، وتفننوا في أذى المسلمين ، وإيصال المضرة إليهم ، واستعمل منهم كاتب يعرف بالراهب ، ولقب بالأب القديس ، الروحاني

¹ - انظر : أحكام أهل الذمة / مرجع سابق/ ج 1 / ص 216 ، 217 .

² - انظر : أحكام أهل الذمة / مرجع سابق/ ج 1 / ص 221 ، 222 .

النفيس ، أبي الآباء ، وسيد الرؤساء ، مقدم دين النصرانية ، وسيد
البتريكية ، صفي الرب ومختاره ، ثالث عشر الحواريين ، فصادر اللعين
عامّة من بالديار المصرية من كاتب وحاكم وجندي وعامل وتاجر ،
وامتدت يده إلى الناس على اختلاف طبقاتهم ، فخوّفه بعض مشايخ
الكتاب من خالقه وباعثه ومحاسبه ، وحذّره من سوء عواقب أفعاله ،
وأشار عليه بترك ما يكون سبباً لهلاكه ، وكان جماعة من كتاب مصر
وقبطها في مجلسه فقال مخاطباً له ومسمّعاً للجماعة : نحن ملاك هذه
الديار حرباً وخراجاً ، ملكها المسلمون منا ، وتغلبوا عليها وغصبوها
واستملكوها من أيدينا ، فنحن مهما فعلنا بالمسلمين فهو قبالة ما فعلوا بنا
، ولا يكون له نسبة إلى من قتل من رؤسائنا وملوكنا في أيام الفتوح ،
فجميع ما نأخذه من أموال المسلمين ، وأموال ملوكهم وخلفائهم حل لنا ،
وبعض ما نستحقّه عليهم ، فإذا حملنا لهم ما لا كانت المنّة عليهم ، وأنشد :

بنت كرم غصبوها أمها وأهانوها فديست بالقدم
ثم عادوا حكموها فيهم ولناهيك بخصم يحتكـم

فاستحسن الحاضرون من النصارى والمنافقين ما سمعوه منه ،
واستعادوه وعضوا عليه بالنواجذ حتى قيل : إن الذي اختاط عليه قلم
اللعين من أملاك المسلمين مئتا ألف واثنان وسبعون ألفاً (272000) ما
بين دار وحانوت ، وأرض بأعمال الدولة ، إلى أن أعادها إلى أصحابها
أبو علي بن الأفضل ، ومن الأموال ما لا يحصيه إلا الله ، ثم انتبه الأمر

من رقدته ، وأفاق من سكرته ، وأدركته الحمية الإسلامية والغيرة
المحمدية ، فغضب الله غضب ناصر للدين ، وبار بالمسلمين ¹.

8 — ومن ذلك ما رواه المقرئ في (خطه) : حيث ذكر أسباب
انتفاضة سنة 721هـ / 1320م : أن النصارى عملوا كتاباً لدى الأمراء
الخاصية وترفعوا على المسلمين وكان منهم نصراني (والكاتب عندهم
يجمع الضرائب أيضاً) لدى أمير يدعى عين الغزال فجاء سمسار مسلم
وكان تأخر عن دفع ما عليه من ضريبة فأخذ يستسمح الكاتب والكاتب
يغلظ له فقبل المسلم رجل النصراني والنصراني لا يزداد إلا عتواً
وسباً وضرباً للمسلم فتجمع الناس واستشفعوا له وهو لا يزداد إلا
صلاً وتجبراً فغضب الناس وألقوا الكاتب النصراني عن حماره
وأطلقوا السمسار وكان النصراني قد قرب من بيت الأمير عين الغزال
فاستجد بالأمير فبعث له غلمانه فخلصوه من الناس وشرعوا في
القبض عليهم ليفتكوا بهم .

فذهب فريق من الناس إلى قلعة السلطان وصاحوا " نصر الله
السلطان " فأرسل يستكشف الخبر، فعرفوه ما كان من استطالة
النصراني على السمسار، وما جرى له ولهم، فطلب السلطان الأمير عين
الغزال، وأحضر الأمراء وجميع النصارى الكتاب لديهم الذين استطالوا
على المسلمين وأذلّوهم، فأمر بقتل النصارى هؤلاء، فتقدم إليه الأمراء
واستشفعوا لهم، فأمر السلطان الأشرف خليل ألا يُستخدم اليهود
والنصارى في دوائر الدولة، ولا عند الأمراء . وأمر الأمراء أن

¹ — انظر : أحكام أهل الذمة / مرجع سابق / ج 1 / ص 226 ، 227 .

يعرضوا الإسلام على من لديهم من الكتاب والموظفين من أهل الكتاب،
فمن قبل الإسلام تركه في وظيفته، ومن أبى أخرجه من وظيفته،
فأظهروا الإسلام، فأنعم عليهم السلطان بالتشريفات، وبقوا في وظائفهم
حتى قال الشاعر :

أسلم الكافرون بالسيف قهراً وإذا ما حلوا فهم مجرمونا
سلموا من رواح مال وروح فهم سالمون لا مسلمونا

9 — ومن ذلك ما رواه المقرئ في (خططه) أيضاً قال : لما
انتهى الفيضان زمن ولاية " الحافظ لدين الله " انتدب الموفق بن الخلال
جماعة من العدول والكتاب النصاري إلى الولايات والأعمال، لتحرير ما
شملة الري وما زرع من الأرض، وتقدير خراجها وكتابة المكلفات .

وحدث أن خرج إلى بعض الجهات من يمسحها من شاد وناظر
وعدول، وتأخر الكاتب النصراني ثم لحقهم .

وأراد الكاتب عبور النهر إلى الناحية الأخرى فحملة ضامن المعديّة
حتى إذا بلغ وجهته المقصودة سأله أجره، فغضب الكاتب وسبه، وقال له
: أنا ماسح هذه البلدة وتريد حق التعديّة ؟ .

فقال له الضامن : إن كان لي زرع فخذ .

ثم تقدم فخلع لجام بغلة القبطي وألقاه في معديته . فلم يجد الكاتب بداً
من دفع الأجرة حين أخذ لجام بغلته .

ولما انتهى من مسح البلدة، وفرغ من تببيض المكلفة وحملها إلى
ديوان الخراج في العاصمة كما جرت العادة، وأضاف عشرين فداناً إلى

المجموع، وترك فراغاً بإحدى الصفحات وأطلع الشهود على القائمة فوقعوا بصدقها .

ثم كتب هو البياض الذي تركه (أرض اللجام) باسم صاحب المعديّة، وقدرها بعشرين فداناً، لكل فدان أربعة دنانير . ثم جمل المكلفة إلى ديوان الأصيل.

وكانت العادة قد جرت أنه بعد انقضاء أربعة أشهر من السنة الخراجية، ترسل جنود أصحاب بطش وقوة، وكتاب وشهود، وكتاب نصراني إلى الولايات لاستخراج ثلث خراج الأرض وفقاً للمكلفات . وكان هذا القدر من المال ينفق على الجند إذ لم تكن لهم وقتئذ إقطاعات .

ولم يكن من المؤلف إرسال الرجل الذي قام بمسح الأرض، بل يندب آخر مكانه.

ولما ذهبت هذه الجماعة وأعني بها (الشاد والكايب والعدول) لجمع ثلث مال الناحية استدعوا أرباب الزرع، ومن بينهم ضامن المعديّة، وأرغموه على دفع ستة وعشرين وثلثي دينار .

فأنكر أن يكون مالكا لأي أرض في هذه الناحية وأيده القرويون في إنكاره. فرفض الشاد — وكان فظاً عسوفاً — الاستماع إلى شهادتهم وضربه بالمقارع ، وأرغمه على بيع قاربه وغيره لدفع الثلث الثابت عليه .

فسار صاحب المعديّة إلى القاهرة، وأبلغ الخليفة قصته، فأعيد النظر في قوائم الخراج، فلم يجدوا أية إشارة إلى أرض اللجام .

فأمر الخليفة بإحضار الكاتب وسمّر في مركب وقام له من يطعمه ويسقيه وتقدم أن يطاف به في سائر الولايات وينادى عليه، كما أمر بكف يد النصارى كلهم عن الخدمة .

وكان الحافظ مولعاً بالفلك والتنجيم، فعمد النصارى إلى رشوة منجمه الخاص وطلبوا إليه أن يفضي للخليفة بأن مصر ستزدهر إن أقام السلطان في تدبير الدولة واحداً معيناً من النصارى — هو الأكرم بن زكريا — فجازت الحيلة على الخليفة وجعل للأكرم أمر الدواوين .

وبادر الأكرم من ساعته إلى زيادة عدد المسيحيين أكثر مما كانوا عليه قبلاً وظهرت عليهم دلائل النعمة، فارتدوا الملابس الجميلة، وركبوا البغلات الرائعة، والخيول المسومة بالسروج، وبالغوا في الشدة على المسلمين، وضايقوهم في أرزاقهم واستولوا على الأحباس الدينية والأوقاف الشرعية، واتخذوا العبيد والمماليك والجواري من المسلمين والمسلمات، حتى لقد حملوا أحد الكتاب المسلمين على بيع أولاده وبناته بغرامة فرضوها عليه .

والتزم الخطوة نفسها أبو نجاح النصراني المعروف بالراهب . فقد اقتضت مشيئة الخليفة المنصور أبو علي الملقب بالأمير — وهو عاشر الخلفاء الفاطميين — أن يسند إليه منصب الوزارة . وياشر الرجل عمله فارتكب مظالم كثيرة، وسار في سياسة أحفظت عليه النفوس وبغضته لدى العامة .

ولم يفلت من بلائه كبار الموظفين ومنهم القضاة والكتاب .

بل لقد أثّر عنه ما يدل على تنقص لمكانة النبي ﷺ .

ثم أخذ يشدد في مصادرة أموال الناس على اختلاف طبقاتهم إلى أن
لقى مصرعه أخيراً في الحادثة الآتية :

ذلك أنه كان يجلس بالجامع العتيق ويرسل في استدعاء من أراد
مصادرة أمواله، وفي يوم من الأيام طلب رجلاً من العدول الممتازين
يعرف بابن الغرس، كان قد نال قدراً كبيراً من إجلال الناس واحترامهم
. فأهانته .

فخرج من عنده ووقف في المسجد يوم الجمعة، حيث يشدد ازدحام
الناس وعبر عما شعر به من آلام وأحزان قائلاً :

يا أهل مصر انظروا عدل مولانا الأمر في تمكينه النصراني من المسلمين!
وهاجت هذه الكلمات عوامل الغضب في النفوس، وكادت تفضي إلى
نشوب الفتن والاضطرابات لولا تدخل خواص الخليفة في الأمر،
وأعلموا مولاهم بما حل بالمسلمين من عدوان هذا الوزير وخوفه سوء
العاقبة .

فبعث الخليفة في طلب أبي نجاح .

فلما مثل بين يديه، انطلق رجل من الأشراف كان في حضرة الخليفة
وأنشده هذا البيت :

إن الذي شُرِّفَ من أجله يزعم هذا أنه كاذب .

يقصد تذكير الخليفة بما أشيع عن الراهب من تهجم على مكانة
رسول الله . وعندئذ التفت الخليفة إلى أبي نجاح وقال له :
ما تقول يا راهب ؟ فسكت فأمر بقتله ¹

¹ - انظر : التعصب والتسامح / مرجع سابق / ص 57 - 60 . نقلاً عن المقريزي في
خطه .

ثانياً : التعاون مع أعداء المسلمين وموالاته الغزاة الماكريين .

لم يلق النصارى ولا لغيرهم؛ ممن عاش في كنف دولة الإسلام: صدرأً أحنّ من صدر الإسلام ، ولا قلباً أرأف من قلوب أهله ، ولا عدلاً أعظم من عدل قاداته وحكامه؛ بيد أن أناساً تعودوا على قطع الأيدي التي مدت إليهم بالإحسان ، والتأمر على الدول التي شملتهم بالرعاية والأمان ، وهذا ما بدا وظهر من بعض النصارى والتاريخ يسجل لنا بعض هذه المواقف المخزية لهؤلاء ، ومنها :

1 — ذكر ابن كثير في أخذ التتار لدمشق قال: أرسل هولاءكو وهو نازل على حلب جيشا مع أمير من كبار دولته يقال له " كتبغا نوين " وتداعت القلعة للسقوط فأجابهم متوليها في آخر ذلك النهار للمصالحة ، ففتحوها وخرّبوا كل بدنة فيها وأعالى بروجها ، وذلك في نصف جمادي الأولى من هذه السنة، وقتلوا المتولي بها بدر الدين بن قراجا ، ونقيبها جمال الدين ابن الصيرفي الحلبي ، وسلموا البلد والقلعة إلى أمير منهم يقال له : ابل سيان، وكان لعنه الله معظما لدين النصارى فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم فعظّمهم جدا ، وزار كنائسهم فصارت لهم دولة وصوله بسببه ، وذهب طائفة من النصارى إلى هولاءكو وأخذوا معهم هدايا وتحفا وقدموا من عنده ومعهم أمان فرمان من جهته ، ودخلوا من باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤس الناس ، وهم ينادون بشعارهم ويقولون : (ظهر الدين الصحيح دين المسيح) ، ويذمّون دين الإسلام وأهله ، ومعهم أواني فيها خمر ، لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمرا ، وقماقم ملانة خمرا يرشون منها على

وجوه الناس وثيابهم ، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم ، ودخلوا من درب الحجر فوقفوا عند رباط الشيخ أبي البيان ورشوا عنده خمرا ، وكذلك على باب مسجد درب الحجر الصغير والكبير ، واجتازوا في السوق حتى وصلوا درب الريحان أو قريب منه ، فتكاثر عليهم المسلمون فردوهم إلى سوق كنيسة مريم ، فوقف خطيبهم إلى دكة دكان في عطفة السوق فمدح دين النصارى وذم دين الإسلام وأهله فإننا لله وإننا إليه راجعون ¹.

2 — نقل صاحب كتاب " النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة ": أن الفرنج لما حاصروا أنطاكية مدة ، نافق رجل من أنطاكية يقال له فيروز — وكان نصرانيا — وفتح لهم في الليل شباكا فدخلوا منه ووضعوا السيف وهرب شعبان — حاكم أنطاكية — وترك أهله وأمواله وأولاده بها فلما بعد عن البلد ندم على ذلك ، فنزل عن فرسه فحشى التراب على رأسه ، وبكى ولطم ، وتفرق عنه أصحابه ، وبقي وحده فمر به رجل أرمني حطّاب فعرفه فقتله ، وحمل رأسه إلى صنجيل ملك الفرنج ².

3 — و نقل أيضا صاحب كتاب " النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة " عن أبي يعلى بن القلانيسي : أن قوما من أهل أنطاكية — وكانوا نصارى — عملوا وواطأوا الفرنج على تسليمها إليهم لإساءة تقدمت من حاكم البلد في حقهم ومصادرتهم لهم ، ووجدوا الفرصة في

¹ — انظر : البداية والنهاية / مرجع سابق / ج 13 / ص 219 .

² — انظر : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة / مرجع سابق / ج 5 / ص 146 .

برج من الأبراج التي للبلد مما يلي الجبل ، فباعوهم إياه وأصعدوا منه في السحر وصاحوا ، فانهزم ياغي سيان وخرج في خلق عظيم ، فلم يسلم منهم شخص .¹

4- ولقد تكرر مشهد الغواية والخيانة في مطلع العصر الحديث عندما جاء بونابرت (1769-1821م) على رأس الحملة الفرنسية لغزو مصر (1213هـ/1798م)، وألقى حبال الغواية لأبناء الأقليات الدينية، ووقع في هذه الحبال نفر من أقباط مصر، خانوا أمتهم وطائفهم وكنيستهم. قادهم " المعلم يعقوب حنا" (1745-1801م) وكونوا فيلقاً قبطياً تزياً بزي الجيش الفرنسي، وحارب المصريين وأذلهم لحساب الفرنسيين. ولقد تحدث مؤرخ العصر الجبرتي (1167-1237هـ/1754-1822م) عن صنيع "بونابرت" مع هذه القلة الخائنة، عندما جعل لهم نصف عضوية "ديوان المشورة"، والسلطة الفعلية في الجهاز المالي والإداري وبعبارة الجبرتي، فلقد فوض الجنرال كليبر (1753-1800م) للجنرال يعقوب "أن يفعل بالمسلمين ما يشاء حتى تطاول النصارى من القبط ونصارى الشوام على المسلمين بالسب والضرب ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصالح مكاناً وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين!"²

¹ - انظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة / مرجع سابق / ج 5 / ص 147 .

² - انظر: عجائب الآثار في التراجم والأخبار / الجبرتي/ تحقيق حسن محمد جوهر، وآخرون/ ط 1965/ ج5/ ص 136. وانظر: في المسألة القبطية / د : محمد عمارة / ص 52 ، 53 / طبعة مكتبة الشروق القاهرة / الطبعة الأولى 2001 م .

5 - الاستغاثة بالأم أمريكا¹ : ففي أحداث الكاتدرائية المرقسية (مقر بطريرك الأقباط الأرثوذكس) المصاحبة لإسلام وفاء قسطنطين سمع العالم كله هتافات من داخل الكاتدرائية أقرب ما يمكن أن توصف به: خيانة عظمى "يا أمريكا فينك فينك.. أمن الدولة بيني وبينك!" وهي استغاثة بأمريكا الأم السفوق والصدر الحنون، إنها دعوة صريحة للتدخل الأمريكي لحماية الأقباط من اضطهاد "يشنشن" به من يطلق عليهم: أقباط المهجر.

وفي واقعة الفيوم² رفعت لافتة بالإنجليزية تقول: " Christians under attack " أي (النصارى تحت وطأة الهجوم) ، وقد كانت الكنيسة دائماً ما تؤكد بأن أصحاب هذا التوجه ما هم إلا فئة ضالة، أصبحت ألعوبة في يد المخابرات الأمريكية، والصهيونية العالمية. ولكن يبدو أن

¹ الاستغاثة بالأم أمريكا يدين الكثير من الأقباط في مصر، ورقة الأقلية الدينية والاضطهاد الديني يلجأ إليها أقباط مصر على وجه العموم، وأقباط المهجر على وجه الخصوص.

² - رغبت فتاتان هما: ماريان مكرم وتريزا إبراهيم، المتخرجتان حديثاً من كلية الطب في شهر إسلامهما، واتجهت الفتاتان إلى الشهر العقاري بالفيوم لتوثيق اعتناقهما للإسلام، وهنا تدخلت أجهزة الأمن، وطلبت من رجال الدين المسيحي في الفيوم الحضور لأحد فنادق المدينة لعقد جلسة نصيح للفتاتين كما هو متعارف عليه عند إسلام أي نصراني ، والتي يقوم بعض الكهنة من خلالها بتقديم النصيح بالبقاء على دينهما، وما أن علم أقباط الفيوم بما جرى حتى خرجت جموع حاشدة بالآلاف أغلبهم من الشباب للتظاهر داخل كنيسة مارجرجس يوم 27 فبراير 2004، احتجاجاً على عقد جلسة النصيح!! وطالبوا بإعادة الفتاتين لأسرتيهما، وانتهت القضية بتلك الجلسة التي جرى خلالها (إقناع!) الفتاتين بعدم المضي قدماً في إجراءات الإشهار!

الكنيسة في حد ذاتها قد وقفت هذا الموقف، ولم يكن الموقف لأقباط المهجر فحسب؛ وإنما كان من أقباط الداخل كذلك.

6 - أقباط المهجر: وآخر هذه المواقف المخزية هو لمن يطلق عليهم أقباط المهجر، وهؤلاء يتم استخدامهم بأخس الطرق وأحقرها، حيث تدفع لهم الرواتب من الخزانة الأمريكية بالدولار الأمريكي، وأفزع ما في الأمر أن يعلن بعض المنتمين إلى هذه الطائفة على مواقعها على الانترنت عن حاجة المخابرات الأمريكية عن عملاء وجواسيس ممن يحملون الجنسية العربية برواتب مغرية تتجاوز الخمسة آلاف دولار.

وكان موقع "العربية" قد نشر على صفحاته ما يؤكد هذه الفضائح المخزية، والعار المشين، قالت "العربية": ناشدت مواقع قبطية على الإنترنت رئيس وزراء إسرائيل أرييل شارون والحكومة الأمريكية التدخل في هذه القضية. كما طالب عدد من الأقباط المصريين غالبيتهم في الولايات المتحدة بحكم ذاتي للأقباط في مصر.

وقد سعي عدد من أقباط المهجر في أمريكا وكندا، عبر بيانات وصلت للصحف المصرية، الاستجداد بأمريكا وإسرائيل لحمايتهم، وطلب وساطة رئيس الوزراء الإسرائيلي آرييل شارون مع الحكومة المصرية. وأبدت مصادر رسمية غضبها مما تنشره بعض مواقع أقباط المهجر على شبكة الإنترنت من تحريض على الفتنة الطائفية في مصر، ومزاعم عن قصص لأسلمة زوجات كهنة، ودعوة أطراف خارجية للتدخل، خاصة بيان لـ "الجمعية الوطنية القبطية"، التي تتخذ من واشنطن مقرا

لها، وصل لصحف محلية، يطالبون فيه شارون بحماية الأقباط، والتدخل لدى الحكومة المصرية لمنع ما يسمى "اضطهاد الأقباط"، حيث "كان الأقباط أيام أجدادهم الفراعنة يحتمون باليهود ووزيرهم آنذاك يوسف الصديق، واليوم جاء دوركم"، وفق نص البيان.

وقد قام المهندس مايكل منير رئيس منظمة أقباط الولايات المتحدة، وفق موقع "أقباط أمريكا" على الإنترنت، بإرسال عدة خطابات إلى الرئيس الأمريكي جورج بوش وأعضاء الكونجرس الأمريكي، يحثهم فيها على التدخل لدى الرئيس المصري حسني مبارك، لإيقاف "مثل هذه الأعمال الإرهابية من قوات الأمن المصرية". وقالت إنه سيتم عقد لجنة سماع في الكونجرس عن الأحداث القائمة في مصر قريباً.¹

¹ - انظر: موقع العربية نت "www.alarabiya.net".

المراجع

• القرآن الكريم .

• كتب التفسير :

1. أحكام القرآن / الجصاص / ج 2 / ص 327 / ط دار الكتاب العربي بيروت/ بدون .
2. تفسير القرآن العظيم / الإمام ابن كثير / ط دار الفكر / 1401 هـ .
3. جامع البيان عن تأويل القرآن / ابن جرير / ط دار الفكر بيروت / ط 1405 هـ .
4. الجامع لأحكام القرآن / القرطبي / ط دار الشعب / الطبعة الثانية 1372 هـ .
5. في ظلال القرآن / سيد قطب / ط دار الشروق / الطبعة التاسعة 1980 م .

• كتب الحديث :

6. صحيح البخاري .
7. صحيح مسلم .
8. سنن أبي داود .
9. سنن النسائي .
10. سنن ابن ماجه .
11. موطأ مالك .
12. مسند أحمد .
13. مجمع الزوائد .
14. السلسلة الصحيحة / الألباني .
15. صحيح الجامع الصغير / الألباني .
16. صحيح سنن الترمذي / الألباني .
17. صحيح سنن أبي داود / الألباني .
18. ضعيف الجامع الصغير / الألباني .
19. الموسوعة الحديثية/تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤط وآخرون/ طبعة مؤسسة الرسالة/ ط الثانية 1999م.

• المعاجم :

20. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ محمد فؤاد عبد الباقي/ ط دار إحياء التراث العربي .
21. معجم البلدان / ياقوت الحموي / ط دار الفكر بيروت / بدون .

• كتب ومراجع عامة:

22. أحكام أهل الذمة / ابن القيم / ط دار العلم للملايين / ط الأولى 1961 م .
23. أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام / د : عبد الكريم زيدان / ط الثانية 1976 م .
24. الإسلام والسياسة الرد على شبهات العلمانيين/ محمد عمارة/ دار الرشد القاهرة/ ط 1997م.
25. الإسلام والنصرانية مع المدنية والعلم/ محمد عبده/ الحداثة للطباعة والنشر/ ط3، 1988م.
26. الأموال/ حميد بن زنجويه.ت. د. شاكر ذيب فياض/ مركز الملك فيصل للبحوث/ 1986م.
27. الأموال/ أبي عبيد القاسم بن سلام/ تحقيق: د: محمد عمارة/ ط دار الشروق/ ط 1989م.
28. بدائع الصنائع/ الكاساني / ط دار الكتاب العربي لبنان / الطبعة الثانية / ط 1974 م .
29. البداية والنهاية / ابن كثير / ط مكتبة المعارف بيروت / بدون تاريخ .
30. تاريخ الأمم والملوك / الطبري / ط دار الكتب العلمية بيروت / ط اولأى 1407 هـ .
31. ترتيب المدارك / القاضي عياض/ ط دار الحياة ببيروت .
32. التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام / الشيخ محمد الغزالي / ط : دار البيان الكويت .
33. حاشية رد المحتار/ ط دار إحياء التراث العربي بيروت/ بدون .
34. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع عشر / آدم منتر .
35. الحق المر/ محمد الغزالي / طبعة دار الشروق/ الطبعة الأولى 1989م.
36. حلية الأولياء / أبو نعيم / ط دار الكتاب العربي بيروت / ط الرابعة 1405 هـ .
37. الدعوة إلى الإسلام/ سير توماس أرنولد/ ترجمة د إبراهيم حسن وآخرون/ ط3/ م النهضة.
38. الرحيق المختوم / الشيخ صفى الدين المباركفوري / ط دار الفكر / ط الأولى 1991 م .
39. زاد المعاد / الإمام ابن القيم / مؤسسة الرسالة / ط الثانية 1997م.
40. سيرة ابن هشام / ابن هشام .
41. شرح السير الكبير/ طبعة الجامعة/ بدون.
42. الطبقات الكبرى / ابن سعد / طبعة دار صادر بيروت / بدون .
43. عجائب الآثار في التراجم والأخبار/ الجبرتي/ تحقيق حسن محمد جوهر وآخرون/ 1965.
44. عيون الأنباء في طبقات الأطباء / ابن أبي أصيبعة / ط دار مكتبة الحياة بيروت.
45. غير المسلمين في المجتمع الإسلامي/ د يوسف القرضاوي/ م الرسالة / ط4 ، 1985م.
46. فتاوى معاصرة/ د. القرضاوي / ج 3 / ص 169/ دار القلم الكويت / ط الثالثة 2001م.
47. فتوح البلدان / البلاذري / ط دار الكتب العلمية بيروت / ط 1403 هـ .
48. فقه السنة / سيد سابق/ ط دار الفكر/ ط 1992م.

49. فقه الزكاة / د يوسف القرضاوي / طبعة مكتبة وهبة/ ط الحادية والعشرون / ط 1994 م .
50. في المسألة القبطية/ د. محمد عمارة / طبعة مكتبة الشروق القاهرة / 2001 م .
51. الفروق/ القرافي/ دار المعرفة بيروت/ بدون.
52. قصة الحضارة/ ول ديورانت.
53. الكامل / محمد بن محمد الشيباني / ط دار الكتب العلمية بيروت/ ط 1995م.
54. مجموع الفتاوى / ابن تيمية/ بدون .
55. من روائع حضارتنا / د: مصطفى السباعي/ طبعة دار القلم الكويت/ الطبعة الثالثة 1982م.
56. موقف الإسلام العقدي من كفر اليهود والنصارى/ د. القرضاوي / مكتبة وهبة / 1999 م .
57. المبسوط / السرخسي / ط دار إحياء التراث العربي بيروت/ ط الأولى 2002 م .
58. المحلى / ابن حزم / ط دار الأفاق الجديدة بيروت/ بدون.
59. المسيحية عبر تاريخها في المشرق/ تحرير: حبيب بدر وسعاد سليم وآخر/ مجلس كنائس الشرق الأوسط/ بيروت لبنان/ الطبعة الأولى 2001م.
60. المغني / ابن قدامة/ طبعة هجر/ الطبعة الأولى 1979 م .
61. الملل والنحل والعراق. هموم الأقليات في العالم العربي/ سعد الدين إبراهيم/ ط 1990م.
62. المنهاج مع الحاشية / محمد بن أحمد الشربيني الخطيب / طبعة دار الكتب العلمية.
63. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة / جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي / طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة .
64. هذا الدين / الشهيد سيد قطب / دار الشروق / ط 1978م.
65. يا أقباط مصر انتبهوا/ محمد مورو / ط دار المختار الإسلامي/ ط 1998م.

• الحوليات والدوريات:

66. السياسة الأموية تجاه أهل الذمة ومؤسساتهم في بلاد الشام / مروان القدومي / بحث في مجلة الدعوة الإسلامية الليبية / عدد 5 .

• الصحف والمجلات:

67. الأهرام المصرية 9 / 3 / 2003 م ، وتاريخ 1 / 4 / 2003. وتاريخ 6/3 / 1985م.
68. صحيفة الوفد القاهرية عدد 21 / 1993م.

• المواقع الإلكترونية على شبكة الإنترنت:

69. موقع العربية نت " www.alarabiya.net "

الفهرس

4.....	الإهداء
5.....	مقدمة
7.....	أولاً: عيسى عليه السلام في القرآن والسنة
15.....	ثانياً: مريم في القرآن والسنة
21.....	ثالثاً: حديث القرآن والسنة عن النصارى
23.....	1. الحماية من الاعتداء الخارجي
23.....	2. الحماية من الظلم الداخلي
25.....	رابعاً: من الأحكام المتعلقة بالنصارى في شريعة الإسلام
25.....	1- الزواج بالنصرانية - وكذلك باليهودية -
29.....	الحكمة من إباحة الزواج من الكتابية
32.....	من تزوج من الصحابة بالنصرانية
33.....	2 - النصارى ينفق عليهم من الصدقات
35.....	3 - أماكن العبادة تُصان وتُحصى
37.....	خامساً: المسلمون في الحبشة
39.....	سادساً: الوفود
39.....	1- وفد النجاشي وأهل الحبشة :
40.....	2 - وفد نجران :
43.....	3 - وفد عبد القيس :
44.....	4 - وفد طيء :
44.....	5 - قدوم عدي بن حاتم
47.....	سابعاً: مكاتبة الملوك والأمراء النصارى كما كتب غيرهم
47.....	1 - النجاشي ملك الحبشة :
49.....	2 - المقوقس عظيم مصر :
50.....	3 - هرقل عظيم الروم :
54.....	ثامناً: مارية القبطية